العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات

قبسات من سير المعصومين

(١)

النبي محمد صلى الله عليه وآله في مكة

نضال الفكر والسلام

تأليف

موفق هاشم عبيد

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشرات

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف:٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: النبي محمد صلى الله عليه وآله في مكة(نضال فكري..ودعوة بالسلام).
تأليف: موفق هاشم عبيد.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.
التدقيق اللغوي: عمار كريم السلامي.
التصميم: علاء سعيد الاسدي.
الاخراج الطباعي:محمد قاسم النصراوي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.
الطبعة: الأولى.
عدد النسخ: ٢٠٠٠ .

شوال ١٤٣٨هـ-تموز ٢٠١٧م

تقديم

ماذا اقول عن انسان حارت به العظماء؟!

وقصر عن وصفه البلغاء

وأذعن لكمال شخصه عجم وأقرباء

فيا رسول الحق..

ها أنا ذا أقول فيك بنشوة العاشقين

وأصبو لمقام حضرتك صبو الواهين

فلا أدري من أين أبدأ

ولا أعرف من أي بحارك اغترف

كلماتي أمامك ضَمْرى

تُوارى محتجبة خَجْلى

فأنى لها بمعنى..

يفوق الأكوان جمعى!

* * *

حينما يُكتب عنك سيدي..

فلابدّ للقلب من مسحة خشوع

ولطف غيبٍ مشرئبٍ بالدموع

وتراتيل صلاة، وأنغام سماء، وهمس ملاك..

ينكت الندى على الثرى

فتَنْبت الصحار..

أزهارا وثمارا!

❋ ❋ ❋

بمَقْدَمِك سيدي.. أُفْجِعَ اليُتْمُ

وبزغت شمس الخلاص.. فأنور العُتْمُ

وأقبل الصبح حاملا نسمات الربيع.. بأُنشودة العصافير:

فليسْبُت الهدْمُ.. وليرحل العدمُ

يا لوحةً لكل عظيم

ورفعةً لا يُدنى لها شرف.. ولا يسمو

❋ ❋ ❋

إننا عندما نكتب عن شخصية النبي ﷺ التي لم يأت بمثلها التاريخ أبدا ولن يأتي، نقف أمام الرحمة العظمى التي وهبها الله تعالى لعباده؛ كي يهديهم سبيل الرشاد، ويضيء لهم طريق السداد، نحن ههنا أمام أعظم مصلح اجتماعي عرفته البشرية؛ إذ أخرج الناس من ظلمات الانحراف والتيه والشتات، الى نور العدل والتوحيد ولمّ الفتات.. فالسيرة العطرة للنبي الاكرم ﷺ بمنجزاته وأخلاقه قد وضعت الاسس والمناهج للتربية الانسانية، وتوجيه السلوك وتقويمه.. مع الانسان نفسه، وأسرته، ومجتمعه الذي يعيش فيه.. وهذه المناهج تمتاز بأنها تساير الفطرة الانسانية، وتتفاعل معها، وتواكب الزمن، وتنسجم مع الحياة بكل جوانبها!!

وقد رأينا ان نتناول في هذا الكتاب موجزاً عن حياة الحبيب ﷺ في مكة المكرمة، ثم نتبعه -ان شاء الله- بكتاب آخر نتحدث فيه بموجز عن حياته ﷺ في المدينة المنورة، ثم نختم -بعونه تعالى- بكتاب يصور المنجز الحضاري (الاجتماعي) للنبي ﷺ ودوره الانساني.. ولا يسعني في المقام إلّا ان اقدم اعتذاري عن كل خلل وزلل قد يجده القارئ في طيات هذا الموجز المتواضع.. فجلّ من لا يُخطئ.. وله الحمد..

وضع الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية

ان من يطالع التأريخ الذي أرخ للجزيرة العربية سيجد أن هذه المنطقة كانت ترزح تحت ظلم كبير ووضع اجتماعي متردٍ الى حد بعيد.. حيث كان الانسان العربي الجاهلي آنذاك قد اتسم بقيم وسلوكيات أضحت عنده مصاديق تنطبق عليها معاني الرجولة والبطولة والفروسية التي يجب على العربي أن لا يحيد عنها!! فالغزو والتعصب والنهب والقتل والسلب كانت من أبرز مظاهر ذلك المجتمع وكانت هي الطابع السائد فيه!! حتى وصل الأمر ببعض القبائل أنها إذا لم تجد من القبائل المعادية من تغزوها فإنها ستولي وجهها شطر أي قبيلة أخرى حتى لو كانت صديقة لها!!

وخير من صوّر ذلك الواقع السيّء المتردي هو الشاعر القطامي الذي يقول:

وكـــن إذا أغـــرن عـلى قبيـل
وأعــوزهــن نهــب حـيـث كـانـا
أغـــرن مـــن الـضـبـاب عـلى حـلال
وضبـــة أنـــه مـــن حـــان حـانـا

وأحــيــانــا عــلــى بــكــر أخينا
إذا مــالــم نــجــد إلّا أخــانــا

فالظلم هو السائد، والعدوان هو الحاكم، فلا أمن ولا أمان! والناس كالذؤبان! ينهش بعضهم بعضا! بلا رادع وبلا قانون رشيد!! فالقوي يأكل الضعيف، وليس للضعيف من ناصر أو معين! إنها حياة الغاب بامتياز! مجتمع خاوٍ في النظم والقيم.. كل ما هنالك هو وجود لبعض القيم التي تمثل بقايا الحنيفية الابراهيمية.. التي لم يكن لها تأثير يذكر بالقياس مع هذا البحر المتلاطم من الانحراف والجهل والعدوان الذي تميز به كبار رجالات الجاهلية وأصحاب الحل والعقد من الاثرياء وأصحاب الزعامات القبلية!

ولو أتينا الى المرأة العربية كمثال عن بقية الشرائح الاجتماعية في ظل هكذا ظروف فإننا سنجد أنها قد نالت النصيب الأوفر والحظ الاعظم من الظلم والاضطهاد، فقد أقصتها الجاهلية آنذاك وهمشتها أيما تهميش، وجعلت منها سلعة تباع وتشترى، وحاجة للاستعمال الجنسي البهيمي! فكانت في وضع لا تحسد عليه أبدا.. ففي بيئة كبيئة الجزيرة العربية حيث الحاكمية للقوة! والسيدية للهوى والشهوة! برزت ظاهرة وأد البنات وشيوعها في المجتمع عند بعض القبائل؛ لما كانت تخافه وتخشاه تلك القبائل من العار الذي سيلحق بها فيما لو تعرضت تلك البنات للسبي نتيجة لذلك الغزو السائد بين القبائل على

مدار أيام السنة وبدون أي رادع!!!

فكان احدهم إذا بشّر بمولود أنثى أسود وجهه وكأن بلية قد حلّت عليه، وعاراً قد لحق به! وقد عبّر الرحمن الرحيم في الكتاب الكريم عن ذلك وصوّره أروع تصوير، فقال عزّ اسمه: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[1]. فالقرآن ههنا يبين كيف كان الجاهلي ينظر الى مجيء المولود البنت، نظرة عار وخزي لا يستطيع معها مواجهة الناس؛ لذلك يتوارى عنهم من شدة الخجل!! كما أن القرآن بين هنا حالة الصراع النفسي الذي ينتاب هؤلاء الجاهليين.. فهو بين الإبقاء على البنت مع ما تستجلبه له من الذل والهون والعيب! وبين أن يلجأ الى دفنها وهي حية؛ ليدفن بذلك الذل العار! فيُنظر له بالبطولة والجرأة والإقدام!! الله أكبر على هؤلاء وساء ما يحكمون! طفلة رضيعة ما ذنبها؟ وأي جريرة اقترفتها؟ لا ذنب لها إلّا لأنها خلقت أنثى! ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾[2]. قتلها التعصب والجهل.. قتلتها قيم التخلف التي كان يتبجح بها الجاهليون قبل بعثة الرحمة الإلهية للعالمين جميعا..

والوضع الجاهلي في الجزيرة العربية لم يكن بمعزل عن الوضع

---

(١) النحل: ٥٨-٥٩.

(٢) التكوير: ٨-٩.

المحيط به في الاقليم؛ لأن الجاهلية لم تكن حكرا على العرب فحسب! ولم يكونوا الوحيدين بذلك؛ فالهنود والفرس والرومان والأحباش لم يكن حالهم بأحسن من العرب بالرغم مما كانت تمتاز به بلدان هؤلاء الاقوام من وجود أنظمة سياسية قائمة. ووجود حكومات تنظم حياة الناس، غير أن الجانب الاجتماعي -وهو الاهم- كان في وضع يرثى له! ربما يصل في أحيان معينة الى حد أبشع مما عليه سكان الجزيرة العربية! فلو قرأنا في تأريخ هذه الشعوب لوجدنا العجائب عندهم.. فهل يعقل مثلا أن الرجل إذا مات في الهند قديما فإن زوجته تحرق معه! أو أن اليوناني كان له الحق أن يقتل زوجته! أما الفرس فحدث ولا حرج مما عندهم من جاهلية! حيث شاع في أوساطهم زواج الاخوات! ثم تطور بعد ذلك الى زواج الامهات والعياذ بالله! وأمثال ذلك كثير مما يندى له القلب السليم والفطرة التي فطرنا الحق سبحانه عليها! وأستطيع أن أقول أن العالم كله وبأسره كان يرزخ تحت الظلم والانحراف، وفيه طغيان تعدى مبلغ الاسراف! فأنّتْ الارض ومن عليها من ذلك الخراب وتلك الفوضى العارمة! كل ذلك كان يهيئ الارضية للمظلومين والمعذبين وذوي القلوب السليمة أن تتفاعل مع ذلك القادم ببشرى الخلاص! وذلك المنقذ، وذلك الملهم، وتلك الرحمة الالهية! فظهر النور في ارض النور! وأشرقت شمس الامل بنور بارئها.. لتقول للظلام ارحل! ابتعد عن موطن المستضعفين والمقهورين! فإن لك فيها لا مساس!

والدا النبي صلى الله عليه وآله

لقد كان والدا النبي صلى الله عليه وآله موحدين لله مؤمنين وعابدين يطبقان الديانة الابراهيمية.. فعبد الله كان من سادات قريش في الخلق والادب وحسن السلوك، وقد نقل لنا الرواة عظم العفاف الذي كان يمتاز به والد الرسول صلى الله عليه وآله عندما كان مع أبيه عبد المطلب وقد اجتاز على فاطمة بنت الخثعمية التي كانت كاهنة وشاعرة عفيفة، والتي كانت قد قرأت بعض الشيء في الكتب القديمة عن علائم النبي صلى الله عليه وآله، فلما رأت وجه عبد الله وهو مضيء بنور النبوة طلبت منه أن يباشرها فتعطيه على ذلك مائة من الابل.. فامتنع وأبى أن يفعل ذلك وقال لها:

أمّا الحرام فالمات دونه
والحِلُّ لا حِلٌّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه
يحمي الكريم عرضه ودينه(١)

فالمعنى واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، أن عبد الله كان قوي الايمان، ولم يضعف أمام الغريزة الجنسية التي كانت حاكمة

(١) السيرة النبوية: دحلان: ج١، ص٣٠.

للسلوك في الغالب على رجالات ذلك الزمان، فمضى مع أبيه، فزوجه من المرأة الفاضلة المؤمنة آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وأقام عندها ثلاثا ثم انصرف واجتاز على فاطمة الخثعمية فقالت له: «يا فتى، إني والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكنّي رأيت في وجهك نورا، فأردت أن يكون فيّ، وأبى الله أن لا يجعله إلّا حيث أراد، فما صنعت بعدي؟».

فقال لها: «زوجني أبي آمنة بنت وهب فأقمت عندها ثلاثا».

فأنشأت متحدثة بحسرة ولوعة على ما فاتها من الفخر والشرف، كما حكت فيه غبطتها للسيدة آمنة بنت وهب التي اصطفاها الله لهذه الكرامة(١).. فأصبحت الوعاء الذي يحوي النبي صلى الله عليه وآله، فاختلط لحمه بلحمها ودمه بدمها! وأي شرف يداني هذا الشرف!!

والسيدة آمنة من بني زهرة القبيلة العربية الممجدة، التي اهتم النسّابون بذكر النابهين منهم، وكانت آمنة في قريش أفضل فتاة نسبا وموضعا(٢).. وهنالك رؤيا غريبة تذكرها كتب التأريخ رأتها السيدة آمنة وقصتها على زوجها عبد الله فقالت له: «لقد رأيت كأن شعاعا من النور انبثق من كياني فأضاء الدنيا من حولي، حتى رأيت به قصور بُصْرى من أرض الشام، وسمعت هاتفا يهتف أنك قد حملت سيد هذه

---

(١) ينظر: أعلام النساء: ج٢، ص١٤٢. تاريخ الطبري: ج٢، ص٧.

(٢) ينظر: السيرة النبوية: دحلان: ج١، ص٢٨.

الأمة...»[١]. وبالفعل تحققت الرؤيا، فحملت بالرسول الاكرم والنبي الاعظم حبيب القلوب.. وشفيع أهل الذنوب! حملت بسيد الخلائق الذي اذعنت له الدنيا ومن فيها.

(١) حياة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله: ج١، ص١٠٠.

آباء النبي ﷺ

ان الشيعة الامامية اتفقت كلمتهم على ايمان آباء النبي ﷺ من آدم الى عبد الله، فكلهم مؤمنون موحدون.. وبذلك تتأكد طهارة النبي محمد ﷺ من الارجاس! وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك عندما قال: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۞ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[(١)].

كما أن الرسول الكريم ﷺ نفسه صرح بذلك عندما قال: «**لم يزل ينقلني الله من اصلاب الطاهرين الى ارحام المطهرات حتى اخرجني في عالمكم ولم يدنسني بدنس الجاهلية**»[(٢)].

أما غير الشيعة الامامية من المسلمين فذهب أكثرهم الى كفر والِديّ النبي ﷺ وغيرهما من آبائه، وذهب بعضهم وهم قلة الى إيمانهم. فمن الذين قالوا بإيمان عبد المطلب وغيره من آباء الرسول ﷺ المسعودي صاحب التاريخ والماوردي والسيوطي والرازي.. فالسيوطي وحده

(١) الشعراء: ٢١٨-٢٢٠.

(٢) مجمع البيان: ج٤، ص٣٢٢. تفسير الرازي: ج٢٤، ص١٧٤. السيرة الحلبية: ج١، ص٣٠. الدر المنثور: ج٥، ص٩٨. سيرة دحلان: ج١، ص١٨.

ألف رسائل عديدة في اثبات ذلك! وفي قبال ذلك هنالك من ألف كتبا ورسائل في اثبات كفرهم! كإبراهيم الحلبي وعلي القاري، واتُهم السيوطي جراء ذلك بالتساهل! وأنه لا يؤخذ بكلامه مالم يوافق كلام الائمة النقاد! ودليلهم في ذلك هو ما جاء في الكتاب الكريم: **﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾**(١). لكن ذلك مردود من وجهين:

١. ما ذهب اليه ابن حجر من اجماع المؤرخين على أن آزر لم يكن أبا لإبراهيم وانما كان عمه أو جده لأمه على اختلاف النقل(٢). واسم ابيه الحقيقي: تارخ، وقد أطلق لفظ الاب توسعا وتجوزا، وهو نظير قوله تعالى: **﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**(٣). وكما هو معلوم فإن اسماعيل عليه السلام كان عماً ليعقوب عليه السلام.

٢. ان ابراهيم عليه السلام بعد ان صار شيخا كبيرا نجده يستغفر لوالديه.. قال تعالى: **﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ**

---

(١) التوبة: ١١٤.

(٢) السيرة النبوية لدحلان: ج١، ص٣٧. الدر المنثور للعاملي: ج١، ص١٦٠.

(٣) البقرة: ١٣٣.

رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء۞رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ۞رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[1]. وهذا الاستغفار من المؤكد انه لم يكن لآزر الذي لم يكن قد آمن بما أتى به ابراهيم! وبذلك نفهم أنه لم يكن أباه.

(١) ابراهيم: ٣٩.

وفاة عبد الله

لقد كتب الله جل وعلا على نبيه الحبيب أن يعيش يتيم الأب وهو لايزال جنينا في بطن امه! وإن كانت هنالك روايات تتحدث عن موت عبد الله بعد ولادة المصطفى صلى الله عليه وآله! ولكنها مردودة لقرائن عديدة ولا تثبت أمام الباحث الحاذق..

وعلى كل حال فإن النبي قد يُتِّمَ مبكرا! والأب لم يقم مع زوجته آمنة إلّا قليلا! إذ سافر الى الشام للتجارة، وفي طريق العودة الى مكة وعند الوصول الى المدينة نزل هو وأصحابه عند أخواله من بني النجار ليستريح قليلا من تعب السفر، وفي تلك الأثناء ألم به المرض! ومع استعجال صحبه للرحيل الى مكة وبقاء المرض فيه تركوه عند أخواله في المدينة! ولما وصلوا مكة أخبروا والده عبد المطلب بالذي حل به! وفي الحال أرسل أخاه الاكبر الحارث ليطمئن عليه، ثم يأتي به الى ديار الاهل، وما ان وصل الحارث المدينة حتى سمع خبر وفاة عبد الله بعد شهر من ترحال قافلته من المدينة الى مكة! وأنه دفن في المدينة (يثرب)! رجع الحارث الى مكة وهو يحمل الاسى والالم لفقد الاخ الحبيب! وما ان وصل مكة حتى علم عبد المطلب بنبأ الوفاة! فحزن حزنا شديدا!

كما حزنت زوجته آمنة التي كانت تتطلع مقدمه برجاء يحدوه الامل! وهي تحمل بين أحشائها امتداده وابنه الوحيد!! أي احساس حزين وأي شعور أليم كان يتملك تلك المرأة التي لم يمضِ على زواجها اشهر معدودات حتى فقدت ولي بيتها وأبا جنينها؟! وكل ذلك كان في ظرف صعب جدا حيث هو بعيد عنهم! مرِضَ وماتَ ودُفن وهم لا يعلمون به! الى أن جاءهم الحارث بخبر الوفاة.

وقد نقل لنا المؤرخون ابيات شعرية منسوبة الى السيدة الجليلة آمنة أم الرسول صلى الله عليه وآله وهي ترثي زوجها عبد الله بلوعة وقلب محزون على فراق الحبيب:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم
وجاور لحدا خارجا في الغمائمِ
دعته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت في الناس مثل ابن هاشمِ
فإن تك غالته المنون وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحمِ[1]

وكانت آمنة عظيمة الوفاء لزوجها؛ حيث كانت تخرج في كل عام من مكة الى المدينة كي تزور قبره بمعية عبد المطلب وأم أيمن حاضنة النبي صلى الله عليه وآله.

(١) السيرة النبوية لدحلان: ج١، ص٣٠.

الولادة الميمونة

في تلك الظلمة الحالكة، وتلك الاجواء الصاقعة! حيث لا انسانية ولا رحمة ولا عقيدة مستقيمة بين خلق الله، إلّا ما رحم ربي عز اسمه، خرجت شمس الشموس لتبشر الدنيا بالخلاص القريب، والأمل المحقق في اقامة العدل بين الخلائق، وسيادة التوحيد في أرض كان يُعبَد فيها آلهة عددها المئات، في ظل نظام يحكمه اللانظام، وشيوع للجور والحرام، وطغيان العبودية على حساب الرحمة والرأفة بخلق الله عز وجل.

ها قد أشرقت على الكون النفحة الالهية الكبرى! لتنقذ ذلك الانسان القابع تحت نير ويلات الجاهلية ومآثم الدنيا.. إنها رحمة الرب الرحيم، وعطاء الإله الكريم، إنها إفاضة الفياض على عباده؛ لتقيم أودهم وتهديهم للتي هي أقوم.

ان لحظات الـولادة المباركة تتحدث عنها السيدة الطاهرة آمنة حين ولادتها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله فقالت: «وفي نفس اللحظة -تعني من ولادتها- خرج من أحشائي خيط من النور، وترامى ناحية المشرق حتى بلغ أرض الشام، وعندما دنا موعد ولادتي ظهر لي الملك من جديد

وأوصاني قائلا: «**عندما تضعين ولدك قولي: أُعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا، فهذا هو الاسم الذي بُشّر به في التوراة والانجيل؛ ولأنه سوف يحمد من جميع سكان السماء والارض...**»[١].

وقد اختلفت الروايات في تعيين تاريخ الـولادة الميمونة، لكن أكثرها تذهب الى أنه ولد سنة٥٧٠ م وذلك عام الفيل، في يوم الجمعة من شهر ربيع الاول في اليوم السابع عشر منه[٢].. في مدينة مكة المكرمة في دار جده عبد المطلب الذي ابتهج به وفرح فرحا عارما والذي قال معوذا إياه شعرا:

الحـــمـــد لله الـــــذي أعــطـــانـــي
هـــذا الــغـــلام الــطــيّــب الأردان
قـــد ســـاد في المــهــد عــلى الــغــلــمان
أعــيـــذه بــالــبــيــت ذي الاركـــــان[٣]

ويذكر ابن هشام في تسمية النبيﷺ رأيا آخر وهو أن جده عبد المطلب قد سماه بهذا الاسم الشريف.. وأن قريشا قد قالت له لم سميته محمداً ورغبت عن تسميته بأسماء أهل بيته؟ فقال: «أردت أن يحمده الله

(١) السيرة النبوية/ ابن هشام: ج١، ص١٥٨.
(٢) كشف الغمة في معرفة الائمة: ج١، ص١٤.
(٣) هامش السيرة النبوية/ ابن هشام: ج١، ص١٦٧.

تعالى في السماء، وخلقه في الارض»[١].

ويُذكر أنه حدثت في يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وآله معاجز باهرة وخوارق عجيبة!! وكان أهمها:

١. سقوط كثير من الاصنام ليلة الميلاد الكريمة على وجوهها وتهشمها!

٢. ما حدث لإيوان كسرى من زلزلة آلت الى سقوط شرفاته!

٣. انطفاء نار المجوس التي لم تخمد منذ ألف سنة! وقد كانت تعبد من دون الله.

٤. غيض بحيرة ساوة التي توجد في ايران!

٥. ما ذكره ابن هشام من فزع بعض احبار اليهود من ولادة النبي صلى الله عليه وآله، الذي صعد على أطمة بيثرب، وصرخ بأعلى صوته طالبا حضور اليهود قائلا: «يا معشر اليهود»، فلما اجتمعوا عنده رأوه مذهولا فقالوا له: «ويلك!! ما لك؟»

فأجابهم: «طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به»[٢].

---

(١) السيرة النبوية/ ابن كثير: ج١، ص٢١٠. ينظر: السيرة الحلبية: ج١، ص٧٨.

(٢) ينظر السيرة النبوية/ ابن هشام: ج١، ص١٥٩.

رضاع النبي ﷺ وحليمة السعدية

مما يجدر ذكره ان أول مَرضَع للنبي ﷺ كان من أمه آمنة بنت وهب، غير أن ارضاعها له لم يستمر إلّا أياما معدودات! قيل سبعة وقيل تسعة! وسبب قلة أيام ارضاعه هو جفاف لبن السيدة آمنة نتيجةً لما أُلحق بها من وفاة زوجها عبد الله!! ثم ان قريشا كانت قد اعتادت ان ترسل ابناءها الرضع الى البادية عند القبائل المعروفة بالخصال الحميدة لتنشأ وتتربى على أتم ما يمكن! وكذلك فُعل مع النبي الخاتم ﷺ، حيث عرضه جده عبد المطلب على مرضعات بني سعد، تلك القبيلة التي عرفت بقيمها الاصيلة وبمرضعاتها الجيدات، وقد أخذته حليمة السعدية معها الى البادية حيث مساكن بني سعد لترضعه وتربيه وفقا لما تعارف عليه أشراف مكة وساداتها آنذاك.. وشاءت الاقدار أن يكون النبي ﷺ عند هذه المرأة سببا للبركة والخير! فقد نقل لنا المؤرخون كلاما قد تحدثت به وهو أنها كانت تعاني من الجدب والضنك وقلة في الرزق وما الى ذلك، وما إن حل عندها الرضيع المبارك حتى بدأت البركات تحل عليها كالمطر المنهمر!! فأغنامها تكاثرت كثيرا وازداد لبنها وتضاعفت أموالها أكثر! وبدت حياتها سعيدة جدا!

بقي النبي صلى الله عليه وآله عند بني سعد ما يقرب من خمس سنوات، ينتهل من أجواء البيئة الصحراوية ويتعلم اللغة العربية الفصحى من منابعها الاصيلة، وكان يقول صلى الله عليه وآله: «**أنا أعربكم أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر**»[١]، كما يفيد من تلك البيئة في تكوين جسد قوي، يتميز ببناء ذي مناعة للأمراض وظروف الطبيعة الاخرى، كما أُتيح له هناك الحرية والاستقلال الفكري، مما جعله يتفكر في الكون وخالقه! بعيدا عن مؤثرات المدن!

وبعد أن رجع النبي صلى الله عليه وآله الى مكة المكرمة بقي يكن لحليمة السعدية الود والاحترام، ويذكر أنه قد أصاب الناس جدب في سنة معينة، فجاءت حليمة الى مكة قاصدة الرسول وكان ذلك بعد زواجه من خديجة وقبل البعثة المباركة، فأكرمها النبي وأغدق عليها من مال خديجة عليها السلام.. وكان كلما أتته حليمة مد لها طرف ردائه فتجلس عليه معبرا بذلك عن عظيم احترامه لها!!

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج١، ص١٦٧.

وفاة أم الرسول صلى الله عليه وآله!

يقينا أن أي طفل او صبي لا يستطيع الاستغناء عن حنان امه وعطفها! وفي الوقت نفسه لا يوجد هنالك من يستطيع أن يعوض أو يملأ الفراغ الذي تتركه الأم في طفلها عند موتها! والسبب -حسب اعتقادي وتحليلي المتواضع- هو أن الطفل وخلال الفترة التي قضاها في بطن أمه قد حصل له ارتباط روحي ومادي مع امه؛ فقد اثبتت الابحاث العلمية الحديثة ان فترة مكوث الطفل في بطن امه لتسعة اشهر تجعله مندمجا معها فيما بعد ولادته ومن حيث لا يشعر! نعم فهو قد تطبع على ريحها.. وانسجم مع نوعية غذائها.. وأكثر من ذلك تعود على ايقاع دقات قلبها! فهو قد أصبح كالجزء منها! فكيف بهذا الصبي اذا فقد هذا العش وهذا الامتداد؟! لاسيما اذا كان قد فقده قبل ان يرى النور! فمن له حين يجوع، وحين يعطش، وحين ينام، وحين يتعب أو يمرض؟! وأي ملاذ سيحتضنه؟! وأي أنامل ستداعب فروة رأسه؟! تلك مأساة قد عاش لحظاتها رسول الله صلى الله عليه وآله!! فقد أباه وهو جنين في الاحشاء! ثم فقد أمه وهو مازال صبيا صغيرا! نعم، مواقف ما اصعبها! وأيام ما أحلكها! فقد حدثنا التاريخ عن هذه الوفاة وما أكتنفها من حيثيات!

ففي أحد الاعوام شدت آمنة وابنها الرّحال الى يثرب مصطحبة معهما أم ايمن الجارية التي خلفها عبد الله من بعده، وكانت تهدف من رحلتها ان تزور قبر زوجها الفقيد! زيارة من حنّت له القلوب.. وترك خلفه الآهات والكروب! زيارة من مات بأرض الغربة بعيدا عن زوجته الحامل بابنه الوحيد!

كانت السيدة آمنة تهدف أيضا الى تعريف ابنها بأخوال أبيه من بني النجار الساكنين في المدينة يثرب، فما ان وصلت الى أرض طيبة حتى أرت ولدها البيت الذي توفي فيه أبوه.. والمكان الذي دفن به! أكيدا ويقينا قد هاجت العاطفة بقلب الزوجة الكريمة وهي تستذكر الزوج الصالح، الذي لم تتح له الاقدار ان يعيش معها سوى فترة قصيرة جدا، لم يستطع معها ربما أن يعلم بأن زوجته قد حملت منه! في حال وهي ترى صبيها معها ماثلا أمام قبر أبيه! وربي إنها لحظات جدا مؤلمة وحزينة!

ان ذلك بالنسبة للحبيب محمد صلى الله عليه وآله يُعد أول معنى لليتم قد انطبع في نفسه! وربما أن أمه كانت تحدثه عن أبيه الذي غادرها بعد مقامه معها أياما معدودة! نعم أياما معدودة لا غير! ليداهمه الموت في المدينة عند أخواله وهو راجع من تجارة الشام! قصة تراجيدية مرت أحداثها على منقذ الانسانية في طفولته وصباه! وقد كان -دائما بأبي هو وأمي- يستذكر تلك الرحلة مع أمه، وما تركت في نفسه من أثر وإحساس كبير تجاه ذلك الاب، وتجاه تلك الام التي أنّتْ وبكتْ لفقد ولدها لأبوته

التي لم يذق طعمها أبدا!!

وبعد المكوث في يثرب مدة شهر تقريبا اعتزمت السيدة آمنة العودة الى مكة، فركبت هي وابنها الصبي وأم أيمن البعيرين اللذين أتيا بهم من مكة.. انطلقوا في الرحيل مودعين خلفهم قبر الحبيب ومعه أوجاع الليالي والايام.. لتكون شاهدة بقساوة الدنيا على الام وابنها اليتيم! ولما كانوا في منتصف الطريق حدث ما لم يكن بالحسبان! مرضت السيدة آمنة واشتد بها الوجع! وكان ذلك في منطقة الابواء.. يا لها من لحظات صعبة على قلب الصبي محمد صلى الله عليه وآله! شعوره الكبير بفقد أبيه ما زال هائجا! والآن مهدد بفقد أمه! سفر.. تعب.. اشتياق.. أسى ولوعة! كلها تظافرت على قلب اليتيم! ساعد الله قلبك يا رسول الله! وساعد الله قلب تلك الام الحنون وهي مقبلة على الوداع الاخير والرحيل عن الدنيا! مقبلة على ترك يتيم قد عانى جراء يتمه! أخيرا ماتت السيدة آمنة وارتحلت الى بارئها شاكية قهر الدنيا وآلامها.. حاملة معها هموماً طالما تألمت وبكت بسببها! دفنت آمنة في الابواء، وعادت أم أيمن بالصبي محمد صلى الله عليه وآله الى الديار منتحبا وحيدا!! يشعر بالاسى لما حلّ به! لقد كان من أيام قلائل يسمع من الام أنينا وعبرات لفقد الاب! والان قد رآها بعينيه ترحل.. كما رحل أبوه.. رحلت وتركت وراءها ابنها بجسمه الصغير، وعظمه الرقيق، يحمل هم اليتم بأكمله!!

وجدير بالذكر أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحدث اصحابه عن تلك الرحلة،

حديث محب لتلك الارض التي ضمت بداخلها أبا لم تره عيناه، ولم يظفر بحضنه الدافئ! حديث مشتاق لمدينة تحمل بين أفنيتها وفوق صعيدها ذكريات اللحظات الاخيرة من حياته مع أمه!!

كفالة الرسول صلى الله عليه وآله

بعد الذي حصل للنبي صلى الله عليه وآله من فقدان للأب ومن ثم فقدانه لأمه تكفله جده عبد المطلب، الذي زاد من حبه له واعتزازه أن أباه مات وهو في ريعان شبابه! ثم أتبعته الزوجة آمنة.. وقد تركا وراءهما صبيا بريئا ظهرت فيه بوادر النبوة قبل أن يأتي الى الدنيا ويرى النور! حيث أشار الحق تعالى الى تلك الكفالة بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[1]، فالله سبحانه لم يترك رسوله الموعود هملا تتلاعب به الصدف والاحداث يمينا وشمالا! بل إنه قد حباه بأن يسر له من يكفله ويرعاه ويرفده بكل ما يحتاجه في حياته! ومع أن النبي صلى الله عليه وآله كان كثير الحزن على فقد والديه إلّا أن جده وما أولاه له من اهتمام قل نظيره كان يهدئ بعض الشيء مما هو فيه.. لكن ذلك مع الاسف لم يدم طويلا! فقد امتدت يد الغيب لتخطف تلك البارقة التي تعلق بها الصبي محمد صلى الله عليه وآله! مات عبد المطلب في الثمانين من عمره وحفيده محمد صلى الله عليه وآله عمره ثماني سنوات، حزن الرسول حزنا لا يقل عن حزنه لموت أمه! فكان كثير

(١) الضحى: ٦-٧.

البكاء والحزن عليه[١]، وهنا نجد ان العطف الرباني والاهتمام الالهي لم ينقطع عن نبيه الكريم ﷺ، فقد هيّأ له بدلا عن جده عمه أبا طالب شيخ البطحاء وسيد بني هاشم! وقد لقي حبيبنا ﷺ من العناية والمداراة والرعاية الشيء الكثير، امتدت الى زمن البعثة وبلوغ النبي ﷺ من العمر أربعين! وذلك بما وفره أبو طالب من حماية للنبي ﷺ بما امتلكه عم الرسول من هيبة ووقار في نفوس القرشيين لم يجرؤ معها أحد من المعاندين وأعداء الدين أن يلحق الاذى بابن أخيه محمد ﷺ! ومما لابد من ذكره أن موت عبد المطلب قد شكل ضربة قوية وقاسية لبني هاشم؛ لأن بني أمية استغلوا فرصة عدم وجود أيٍّ من أبنائه من يسد مكانه.. فلا أحد منهم يملك جميع المؤهلات التي كانت قد توفرت فيه! فالحارث لم يكن لديه من المال ما يؤهله لتلك الزعامة! أما العباس -وإن كان أكثر اخوته مالا- غير أنه تصدى لمسؤولية السقاية التي تستوجب الانفاق، أما أبو طالب فقد كان فقيرا قياسا مع غيره! لهذا سرق بنو امية زعامة قريش من آل عبد المطلب وأصبحوا هم الزعماء بما امتلكوه من أموال جمعوها غالبا من طرق غير مشروعة كالربا وأمثاله! وأبو طالب على فقره كان أنبل أبناء عبد المطلب وأكرمهم في قريش مكانة واحتراما! ولعل تلك الصفات الحميدة التي كان يتصف بها أبو طالب هي التي

(١) ينظر: الطبقات الكبرى/ ١/ ١١٩، دلائل النبوة للبيهقي/ ١/ ١٨٨.

جعلت أباه عبد المطلب يعهد إليه بكفالة الصبي محمد صلى الله عليه وآله من بعده[١]، لقد كان أبو طالب يكن من الاحترام لابن أخيه الشيء الكثير حتى أنه يقدمه على أبنائه! وكان ذلك لما وجده عند الصبي محمد صلى الله عليه وآله من النجابة والذكاء والطيبة والطهارة والخلق الرفيع مع كونه صغيرا!!

وأعتقد جازما أن ذلك الاهتمام الذي كان من عبد المطلب سابقا ثم من أبي طالب لاحقا لم يكن فقط بسبب اليتم والخلق والسلوك الذي كان يتمتع به النبي محمد صلى الله عليه وآله إبان طفولته.. وإنما كان بسبب شيء أهم من ذلك وأكبر! نعم فتلك العناية الشديدة وتلك المحبة الفريدة التي ارتقت بالصبي أن يُقدَّم على الابناء تقديما حقيقيا لا تقديما شكليا عاطفيا مبنياً على الرأفة به لما عاناه من فقد الأبوين! لقد كان وراء ذلك الايمان واليقين بنبوة هذا الصبي المبارك.. المقرون بالعلامات الباهرة والدلائل الظاهرة قبل أن يولد ويوجد بين ذويه وأهله!! فجزاهما الله عن رسوله الكريم خير الجزاء لما قدماه له من رعاية وعناية وحماية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج١، ص١٧٨، تاريخ اليعقوبي: ج١، ص٣٣١.

رحلة الشام

لقد أراد أبو طالب يوما السفر الى الشام للتجارة، ولم يفكر يوما أن يصطحب معه ابن أخيه محمد الصبي ﷺ أبدا؛ خوفا عليه مما يعتري السفر من مخاطر! غير أن الرسول لشدة تعلقه بعمه وحبه له أبدى رغبة كبيرة وعارمة للذهاب معه الى الشام!! مما أدى الى اشفاق العم وقبول اصطحابه!! صحب الغلام القافلة حتى وصلت بصرى في جنوب الشام، هنالك حدث شيء لم يكن بالحسبان! حيث تَذكر معظم كتب السيرة ذلك الراهب الذي يسكن في صومعة واسمه بحيرا، وقد رأى في النبي ﷺ علامات النبوة مما جعله يحذر عمه وينصحه بالرجوع به الى مكة وعدم الايغال به في الشام؛ لأن اليهود وأحبارهم قد يعرفونه من علاماته التي معه فيقتلوه!! يقال أن عمه قد ارجعه الى مكة سريعا.. وهناك قول يذهب الى أنه أخذه الى الشام ولكن كان يخفيه عن الانظار ولا يفارقه أبدا!! ومهما يكن من قول فإن العلامات التي كانت مع الحبيب المصطفى ﷺ لم تكن بخافية على من له أدنى معرفة بالديانتين اليهودية والنصرانية!!

إن رحلة المصطفى ﷺ الى الشام يقينا لا تخلو من حكمة ربانية!

فالهدفية في حركات الأنبياء والاحـداث التي رافقت حياتهم كلها مرسومة ومقدرة من لدن حكيم قدير.. هنالك من الكتّاب المحدثين تفلسف وذهب بعيدا في الهدف والفائدة المرتجاة من هذه الرحلة، فمنهم من قال أن فائدتها هي أن يرى النبي ﷺ منازل مدين وديار ثمود ووادي القرى وما يسمعه من أحاديث العرب عن تلك المنازل وأخبارها ليتعظ بها ويكتسب العبر التي تشعل في نفسه مشاعل النور الالهي التوحيدي، فتزلزلت بذلك عروش الشرك وأركـان دين السلف كما يزعمون! وهذا الرأي واهٍ لا يتوافق مع العقيدة الصحيحة في سيد البشر ﷺ وآبائه الموحدين! ومن الكتّاب من يذهب الى أنه ﷺ اكتسب من رحلته معرفة مهمة عن احبار الروم وعلماء النصارى وسمع عن كتابهم وعن تلك العداوة التي كانت مستعرة بين الفرس من جهة والروم من جهة أخرى.. وهذه الآراء وغيرها لم تُدرك من الحقيقة غير الأوهام! وقد لا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن أهم أهداف تلك الرحلة هو لإعلام بعضٍ من أهل مكة أن هذا الصبي اليتيم هو نبي هذه الامة! وأنه ذُكر في التوراة والانجيل بصفاته وعلاماته لكي لا يكون مجال لمعاند أن ينكره مستقبلا ويحارب دعوته! والله تعالى هو العالم بحقائق الأمور.

النبي صلى الله عليه وآله وحرب الفجار

لقد صاحب النبي صلى الله عليه وآله خلال فترة بلوغه بعض الاحداث التي عصفت بقلب الجزيرة العربية مكة! أهمها حرب الفجار التي كانت قبيلة الرسول صلى الله عليه وآله طرفا في هذه الحرب! وينقل لنا بعض من المؤرخين أن النبي صلى الله عليه وآله شارك في هذه الحرب مع عمومته من قريش.. غير أن بعض المحققين شك في تلك الدعوى لعدة اسباب منها:

١. ان النبي صلى الله عليه وآله كلما يتقدم العمر به نجده يزداد تألقا، فهو معروف بالشجاعة الكبيرة كبقية بني هاشم.. وهذا لا يعني بالضرورة أنهم شاركوا بحروب دنيئة مجردة من ابسط قيم العدل والمروءة والشهامة! ففي حرب الفجار يذكرون أن أبا طالب منع أن يكون من بني هاشم في المعركة حين قال: «هذا ظلم وعدوان، وقطيعة رحم، واستحلال للشهر الحرام، ولا أحضره ولا أحد من أهلي»[١].. وانسحب عبد الله بن جدعان وحرب بن أمية وهو قائد قريش وكنانة حينذاك وقال: «لا نحضر أمرا تغيب عنه بنو هاشم»[٢].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

٢. الروايات التي نقلت مشاركة الرسول صلى الله عليه وآله في هذه الحرب اتسمت بالاضطراب والاختلاف حول الدور الذي أداه فيها؛ لأن بعضهم روى: أن عمله صلى الله عليه وآله كان مقتصرا على مناولة النبل لأعمامه والرد على نبل عدوهم وحفظ متاعهم[١]. وروى آخر: أنه قد رمى فيها برميات[٢]. وروى ثالث: أنه طعن أبا البرّاء ملاعب الاسنة فصرعه مع كونه غلاما[٣].. ومع ذلك لا يقوم دليل على مشاركة النبي الاكرم صلى الله عليه وآله في حروب لا تقوم على مبادئ سامية كالدفاع عن المستضعفين والمظلومين أو ما الى ذلك.. هذا بغض النظر عن كونه صلى الله عليه وآله معصوما عن الظلم والذنب والخطأ قبل البعثة كما بعدها! كما أن مدحه ومشاركته ضمن بني عمومته الهاشميين في حلف الفضول يشكل قرينة مساعدة في عدم اشتراكه في حرب الفجار.

---

(١) ينظر: موسوعة التاريخ الاسلامي، الشيخ محمد هادي اليوسفي، ج١، ص٣٠٤.

(٢) السيرة النبوية لدحلان: ج١، ص٢٥١. السيرة لحلبية: ج١، ص١٢٧.

(٣) سيرة دحلان: ج١، ص٢٥١. السيرة الحلبية: ج١، ص١٢٧. تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٦.

النبي صلى الله عليه وآله وحلف الفضول

علمنا سابقا أن النبي صلى الله عليه وآله كان من الداعمين لحلف الفضول والمادحين له، ومدار هذا الحلف أنه قد تعاهد فيه أصحابه وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلّا نصروه وكانوا معه على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته.. وربما جاء هذا الحلف كنتيجة لحرب الفجار وما أصاب قريشاً ومكة من تلك الحرب الضروس، التي لا ربح فيها سوى القتل والموت، واليتم والتيه للنسوة والصغار!! وهو قد جاء أيضا كضرورة لما حل بالقوم من فرقة واختلاف بعد موت هاشم وعبد المطلب؛ وذلك للطمع الذي أبداه رئيس كل عشيرة من عشائر قريش أن يكون زعيما لقريش كلها وصاحب أمرها! وقد قلنا سابقا أن تلك السيادة أخيرا قد سلبها أبناء أمية بأموالهم الكبيرة التي استطاعوا بها التأثير على ذوي النفوس الضعيفة وما أكثرهم! فكانت زعامة مبتناةً على معايير دنيئة ليست كتلك التي تمتع بها هاشم وابنه عبد المطلب من بعده! فهما بما كانا يتمتعان به من قوة شخصية وكياسة رأي ورجاحة عقل وأخلاق وهيبة جعلت من كل واحد منهما في وقته كقطب يلتف حوله جماهير قريش

قاطبة فضلا عن جماهير مكة!

وقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله يتحدث عن ذلك الحلف حديث المادح والصادح بفضله، فيقول: «**مَا أحب أن لي بحِلْفٍ حَضَرْتُهُ في دَارِ ابن جُدْعَان حُمْرَ النعَم ولو دُعِيت بها لأجَبْتُ**»[1].

(١) تاريخ اليعقوبي: ج١، ص٣٣٨.

من أشار له صلى الله عليه وآله بالعمل مع خديجة؟

كان أبو طالب كما قلنا فقيرا نسبيا، وكثير عيال، وقد عاش الواقع ورأى أهمية المال بالنسبة لمن يريد أن يمارس دوره القيادي والريادي في مجتمعه! ولعل ذلك دفعه الى أن يبحث لابن أخيه عن عملٍ وسببٍ للرزق، وقيل إنه بلغه يوما أن خديجة بنت خويلد تستأجر رجالا من قريش في تجارتها تلك المرأة القرشية التاجرة صاحبة المال والعفة والشرف والطهارة وأنها تعمل على تجهيز تجارتها لترسلها الى الشام مع القافلة التي سترحل.. نادى أبو طالب ابن أخيه محمداً صلى الله عليه وآله وعمره الشريف حينذاك خمس وعشرون سنة، وقال له: يا بن أخي أنا رجل ذو فاقة لا مال لدي وقد اشتد الزمان علينا، بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لك بذلك، هل تريد أن أكلمها؟ قال روحي فداه: «**ما أحببت**». خرج أبو طالب لخديجة وكلمها بذلك الذي عرضه على ابن أخيه، فكان جوابها: «لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا! فكيف وقد سألت لحبيب قريب»؟! فعاد العم من حينه الى ابن أخيه مستبشرا يقول له: هذا رزق ساقه الله إليك[1].. عندئذ وافق الحبيب صلى الله عليه وآله

(١) ينظر: السيرة الحلبية: ج١، ص١٣٢، ١٣٦.

على أن يعمل مع السيدة الجليلة خديجة مضاربا بمالها لا أجيرا كما يذهب بعض كتاب السيرة! فقد ورد عن الامام الحسن العسكري عليه السلام عن أبيه الهادي عليه السلام ما يؤكد ذلك فقال: «**إن رسول الله ﷺ كان يسافر الى الشام مضاربا لخديجة بنت خويلد**»[1]. ولاشك أن خديجة كانت تسمع عن أخلاق النبي ﷺ وتعرف ذلك جيدا، وأعتقد أن تلك الاخلاق وتلك الامانة التي عرف بها المصطفى هي من جعلت خديجة تقبل وتوافق أن يعمل معها وبتلك الكيفية التي لم تقبلها لغيره من شبان أهل مكة! نعم فهو بأبي وأمي استحق لقب الصادق والامين دون غيره! فمن أفضل أمانة وصدقا منه تستطيع معه أن تطمئن على مالها!

(١) حلية الابرار: ج١، ص٥٠.

سفره صلى الله عليه وآله الى الشام ثانياً

بعد أن أتفق النبي صلى الله عليه وآله مع السيدة خديجة على العمل معها في تجارتها، تهيأ للرحيل الى الشام بتلك التجارة بمعية ميسرة غلام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، انطلقت القافلة في طريق الصحراء الى الشام مارة بوادي القرى وثمود ومدين! تلك الديار والاوطان المقفرة الخاوية على عروشها، التي لم يبقَ منها إلّا آثار! فكل شيء قد اندرس إلّا العِبَر! نعم دروس وعبر عقلها الحبيب صلى الله عليه وآله بقلبه وعقله.. وبروحه المستمدة ظلها من روح القدس! كما تذكر في الوقت نفسه رحلته الاولى الى الشام مع عمه أبي طالب وهو في الثانية عشرة من عمره الشريف، فالإنسان مجبول على الالتذاذ بالذكريات، خصوصا تلك التي تتصل بأيام الصبا حيث البراءة والتحرر من القيود وانعدام المسؤوليات!

واصلت الرحلة مسيرها صوب الشام، ولما بلغت بهم القافلة بُصرى جنوب الشام التقى براهب من تلك المدينة يدعى نسطورا، ولعل هذا اللقاء أعاد الى ذهن الرسول صلى الله عليه وآله ذلك اللقاء الذي حصل في رحلته الاولى مع بحيرا الراهب! حيث كان النبي صلى الله عليه وآله بصحبة عمه أبي طالب.. وكما كان بحيرا كاشفا لعلامات النبوة في الصبي محمد صلى الله عليه وآله كان

نسطورا كذلك كاشفا عن نبوة الشاب محمد ﷺ!! حيث يذكر الحلبي في سيرته أنه لما قدم النبي ﷺ سوق بصرى نزل عند ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا، خرج الراهب من صومعته وتطلع الى ميسرة وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحزم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلّا نبي -أي صانها الله تعالى أن ينزل تحتها غير نبي- وهو آخر الانبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج- أي يبعث- ثم ذكر له وصفا لعين النبي ﷺ وهو حمرة كانت في بياض عينه وهي الشكلة. ومن ثم قيل في وصفه ﷺ أشكل العينين، فهذه الشكلة من علامات نبوته ﷺ في الكتب القديمة!

ولقد استطاع النبي محمد ﷺ بحنكته وذكائه والامانة التي تمتع بها أن يتجر بمال خديجة تجارة جيدة استطاع بها أن يحرز الربح الكثير والوفير! وتمكن بخلقه العظيم وتعامله الكريم أن يكسب ودّ ميسرة ومحبته واجلاله! وأتمّ ما كان مأمولاً له أن يبيعه في الشام ويشريه من هناك، ثم بعد ذلك أقفلوا راجعين الى مكة.

زواجه ﷺ من خديجة

بعد اتمام النبي ﷺ لتجارته في بلاد الشام أقفل ومن معه عائدين الى أوطانهم في مكة، ولما بلغت القافلة قرية وادي الظّهران قرب مكة، قال ميسرة: «يا محمد انطلق الى خديجة وأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك»، ذهب النبي ﷺ الى خديجة حاملا معه أخبارا سارة تخص تجارتها، فبدأ يحكي لها عن تلك الرحلة بكلمات بليغة وعذبة عن ربحه وما جاء به من صناعة الشام، فأخذت الغبطة في نفس خديجة مأخذها وبدت فرحة مستبشرة بالشاب الهاشمي، ثم أتاها ميسرة وقص لها ما كان في محمد ﷺ من خلق وشمائل وسلوك لا يوجد نظير له في الوجود! ولا ننسى أنها سلفا كانت تعلم ما في محمد ﷺ من السجايا والاخلاق التي عرفتها مكة قاطبة! ويقينا أن ميسرة قد تحدث الى مولاته عما شاهده من تلك الاحداث والمعاجز التي كان بطلها محمداً ﷺ، أهمها تلك التي حدثت مع الراهب المسيحي نسطورا والتي فيها الدلالة الكبرى على ما يحمله الشاب الهاشمي من بشرى للكون كله بالرسالة الخاتمة، والخلاص والتحرر من الظلمات الى نور الحق الجميل! كل ذلك زاد من اعجاب السيدة خديجة بمحمد

الموعود بالنبوة والاصلاح للعالمين جميعا.. وبدت تحمل في داخلها مودة له ورغبة في الزواج منه! أخيرا عرضت رغبتها القوية في الاقتران به على أختها على قول أو على صديقتها على قول آخر، وسارت هذه الى النبي صلى الله عليه وآله وقالت له: «ما يمنعك أن تتزوج»؟

فقال: «**ما بيدي ما أتزوج به**».

فقالت له: «إن كفيت ذلك ودعيت الى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب»؟

فقال صلى الله عليه وآله: «**من هي**»؟

فقالت: «خديجة».

رضي النبي بذلك عن قناعة تامة؛ كيف لا وخديجة المرأة التي يتمناها كبار قريش! فقد خطبها الكثير منهم ولكنها رفضت! وكأن الله سبحانه قد ادخرها لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله لتكون له سكنا وسندا وأما لبضعته سيدة نساء العالمين فاطمة! فحُفظت بها ذرية الرسول صلى الله عليه وآله.

وبعد أن رضي النبي صلى الله عليه وآله سارعت تلك المرأة حاملة الى خديجة بشرى قبول الحبيب بها، ففرحت فرحا لا يوصف! لأنها علمت أنها ستتزوج بسيد البشر والكائنات جميعا! حُددت الخطوبة بموعد، وراح النبي الى أعمامه طالبا منهم أن يخطبوا له خديجة من عمها عمر بن أسد؛ لأن أباها خويلداً قد وافاه أجله في إحدى الحروب فصار عمها وليها

بدلا عن أبيها، سارع أعمامه صلى الله عليه وآله لإجابته يتقدمهم شيخ البطحاء أبا طالب وحمزة، وأقبلوا الى دار خديجة، فاستقبلهم هناك عمها ورحب بالحاضرين، وبعدما استقر الحضور في الجلوس استأذن أبو طالب الحاضرين ليتحدث عن الموضوع، فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع اسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن محمد بن عبد الله أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا، وحزما وعقلا، ورأيا ونبلا، وإن كان في المال قل فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي، وله والله بعد نبأ شائع وخطب جليل»[1]. وبعد أن ألقى ابو طالب تلك الخطبة البليغة في معانيها استجاب لهم عمها وتم العقد بين النبي وخديجة في جوٍ من الفرح والسعادة التي غمرت الطرفين! فكيف لا وقد مني النبي صلى الله عليه وآله بأطهر امرأة قرشية وأوفرهن عفة وعقلا وخلقاً ودينا! وفوق ذلك كانت على سعة من المال وامكانية اقتصادية كبيرة سخرتها بكاملها لخدمة النبي قبل البعثة وبعدها! كما أن خديجة هي الاخرى منيت بمن تجسد فيه الخلق والنبل والكمال.. حظيت بمن رأت فيه علائم النبوة وبشائر الفوز الابدي في الحياة الآخرة عند رب العالمين!

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١٤، ص٧٠.

خديجة المثل والقدوة!

هكذا هي المرأة العظيمة! وهذا هو ديدنها! لا تهمها المظاهر ولا تأخذها الشكليات، فهي على قناعة تامة أن ليس كل ما يلمع ذهباً! والعكس صحيح.. فرب مظهر رديء يخفي وراءه جمالا لا يوصف ولا يجارى! وهذا الشيء لا ينحصر بالمظاهر والاشكال المادية فحسب.. وإنما يجري على الاعتبارات والقيم والتوجهات! وبالنسبة لخديجة كانت أكبر من أن تأخذها المظاهر والشكليات التي كان يتمتع بها اولئك الاسياد من قريش الذين أرادوا الزواج منها! ومع ما هم عليه من المال والجاه والسلطة لكنها لم ترض بأيهم قرينا!! في حين أنها قبلت بيتيم لا يملك من المال والثروة ما يكفي لسد تكاليف المهر التي عليه أن يدفعها! هكذا هي الحرة الطاهرة التي تبحث عن رجل فقير ماديا.. لكنه غني بالخلق والامانة والسلوك! فتبادر هي الى عرض نفسها عليه ليتزوجها؛ لأنها أيقنت أن السعادة لا يمكن أن تكون بالمال والشهرة والسلطة والجاه من دون اخلاق قيِّمة وآداب ذات اعتبار أصيل! وبدونها فإن الحياة ستكون بائسة تعيسة لا قيمة لها!

اختيار النبي صلى الله عليه وآله لرفع الحجر الاسود!

يبدو ان الحكمة الالهية قضت أن تمد المصطفى صلى الله عليه وآله قبل مبعثه بالكرامات المتوالية! والحكمة من ذلك ربما لتهيئة النفوس في جعلها منقادة ومعجبة بشخصه الذي سيكون فيما بعد نبي هذه الامة! وهذه الكرامة التي نحن بصددها كرامة من نوع آخر! أمام الناس وأمام الملأ ومرآهم! وذلك بعدما أراد أهل مكة من قريش وأعيانها إعادة بناء الكعبة التي طرأ عليها ما طرأ نتيجة سيل جارف أتى من الجبال المحيطة بمكة مما ألحق بها الأضرار وأحدث فيها كثيرا من الدمار! فأضحت تحتاج الى إعادة بناء، وفعلا بوشر بالبناء من الخشب الذي أخذوه من السفينة التي رمى بها البحر الى ساحلهم بعد ان أرسلها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر الى الحبشة لتبنى بها كنيسة.. وسار البناء على ما يرام حتى وصلوا الى موضع الحجر الاسود فظهرت مشكلة كادت تحرق أهل مكة بحرب ضروس! فكل قبيلة تريد أن تنال شرف وضع الحجر مكانه! واختلف الزعماء بينهم.. ولا حل يلوح في الافق! أخيرا ولإزالة الخلاف اتفق القوم على أن يرضوا بأول من يطلع عليهم من باب بني شيبة أو باب الصفا! فكان أول من طلع بدر البدور محمد صلى الله عليه وآله!!

ولعمري لم يكن ذلك الشيء بالصدفة أبدا واطلاقا! إنما يد الغيب تخطط وتقدر.. إنه تسديد رب العالمين لنبيه المنتظر!

وإضافة لما حباه الله بهذا الشرف الكبير فإنه ﷺ قد عرف بين الناس بالصادق الامين واجتنابه القاذورات والادناس.. كل ذلك ساعد على أن يرتضيه القوم بشغف حكما فيما اختلفوا فيه وتنازعوا.. فانقادوا الى قضائه!! نعم شاب يحكم بين كبار أهل مكة من قريش وعظمائها! بأبي انت وأمي يا رسول الله! رجال يحكمهم التكبر والعصبية! ويقودهم الهوى والأنانية! أرخَوا لك عنانهم! وأمرغوا بالتراب طغيانهم! فالحمد لله على تأييدك.. وله الشكر على تسديدك..

وبعد ان اختارته القبائل القرشية لتلك المهمة عمل الشاب الحكيم والمسدد بالله ما لم يكن بالحسبان! حيث أخذ ما كان عليه من رداء قيل بساط طاروني[(١)]- وأخذ ﷺ الحجر ووضعه في وسط الرداء ثم طلب من اهل الزعامة والرياسة من قريش ان يأخذ كل واحد منهم بطرف من ذلك الرداء ليحملوا بأجمعهم الحجر حتى اذا ارتفع وأدنوه من موضعه أخذه ﷺ ووضعه في مكانه! وقريش كلها حاضرة، فانبهرت بما صنع ﷺ.. وفي أثناء هذا الموقف المحمود والكبير وبُعيد وضع الحجر الاسود في مكانه بلحظات انبرى شخص متعجبا من زعماء قريش ورؤسائها الذين انقادوا لشاب ربما البعض منهم لديهم حفدة بعمره!

---

(١) الطُّرْن بالضم الخزّ، والطاروني ضرب منه.

فقال: «واعجبا لقوم أهل شرف ورئاسة وشيوخ وكهول عمدوا الى أصغرهم سنا وأقلهم مالا فجعلوه عليهم رئيسا وحكما، أما واللات والعزى ليفوتنّهم سبقا، وليقسمن بينهم حظوظا وحدودا وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم»! وقد قيل ان الذي هتف بالناس هو ابليس عليه لعائن الله تعالى، وقد ظهر بصورة رجل من قريش قد مات فذكروا والذاكرون من المشركين طبعا ان اللات والعزى أحيتاه لذلك المشهد، وقيل أنه من رجالات قريش وحكمائهم من ذوي الفطنة الثاقبة.. وأيا يكن القول فإن الشاب الموعود بالرسالة قد اكتسب من تلك الحادثة مكانة كبيرة في قلوب الناس، فأصبح يشار له بالهيبة والخلق الجميل.. والحكمة والرأي الأصيل[1].

(١) ينظر: المسعودي: ج٢، ص١٣٦-١٣٧.

النبي ﷺ وغار حراء

يعتبر غار حراء بالنسبة للنبي محمد ﷺ المنطلق الفكري الرسالي؛ لأنه يشكل نقطة انعطاف عظيمة في حياة الرسول الاكرم ﷺ وحياة العالم والانسانية أجمع! ففي هذا الغار كان الحبيب يفكر بحال العالم، وما وصل إليه من مستوى في الانحراف والظلم والاضطهاد! وسبل الخلاص من تلك الكوارث التي تنهك الحرث والنسل، وتبطش بالإنسان بطشا عظيما! فكان يتطلع الى السماء ويفكر بالكون وعظمة الخالق الذي يعبده، وكله أمل في التغيير القادم لهذه الاوضاع التي انهكت باله وفكره، تغيير نحو مجتمع لا وثنية فيه ولا عدوان أو جور قد أقضى مضاجعه!

إن النبي ﷺ قد اتخذ من ذلك الغار ملاذا وملتجأ ليبتعد عن تلك الارجاس التي خيمت في كل مكان! فيختلي بنفسه الطاهرة فيناجيها مرة ومرة يناجي ربه! يناجي نفسه أن لا تحيد عن الصراط القويم صراط الآباء والاجداد على ملة الخليل ابراهيم عليه السلام، ويحذرها مكائد الشيطان الرجيم مع انه ﷺ معصوم قبل البعثة وبعدها! ولكن هذا هو ديدن العظماء من أولياء الرحمن.. يستغفرون ويستغيثون ويعظون أنفسهم

باستمرار؛ لأنهم في تواضع تام أمام الله تعالى.. يتذللون له ويتصاغرون أمام عظمته وكبريائه! كما أنه كان صلوات الرحمن عليه وآله يناجي ربه بالمدد والمساعدة في درء تلك الانحرافات وتلك الانحطاطات! يناجي ربه لينقذ البشرية أجمع من تلك الاوبئة وظلمات الجاهلية! كل ذلك كان في غار حراء.. غار التوحيد! وكهف الخلاص من براثن ابليس وزمرته الغاوين! نعم هكذا كان حراء! معبد محمد صلى الله عليه وآله ! وملاذ محمد صلى الله عليه وآله ! ومنهله الذي يلتجئ إليه.. ليروي ظمأ الروح في حياة الغربة التي كان يعيشها وهو محاط بالشرك والظلم والرذيلة والعدوان! وهكذا صارت للحبيب محمد صلى الله عليه وآله علاقة مع غار حراء علاقة روح بجسد وعلاقة انسان ببلد! لأنه المكان الذي احتضن الحبيب، ووفر له من الطمأنينة ما جعله يفرد عقله وقلبه لله وحده لا شريك له! فكان ذلك الغار مصدر النور الذي أضاء العالم كله! فبورك ذلك الغار الذي شعت منه أنوار الهداية في مكة، وامتدت لتصل الى أقاليم الارض شرقا وغربا، فغيرت مسار التاريخ ليأذن بعهد جديد انفتحت فيه أبواب موصدة لآمال قد حبست وكبتت منذ زمن بعيد!

مفاهيم خاطئة!

كان النبي محمد ﷺ يختلي في كثير من أوقاته في غار حراء، يتعبد ويسبح الله كثيرا، وكان الأمل يحدوه، والثقة تملأ قلبه في أنه منقذ الانسانية ومصلح حالها.. وهو على قناعة تامة في أنه مبيد الاصنام وناشر التوحيد على أنقاض الشرك وخرافات الجاهلية! نعم وربي هو يعلم كما قلنا سابقا أنه النبي الذي بشّرت به الاديان.. واستبشرت بلقياه الأحبار والرهبان.. أمثال بحيرا ونسطورا.

وإني لأعجب عندما أقرأ للغالبية العظمى من الكتّاب وهم يروون أن النبي ﷺ وهو في غار حراء كان يفكر في حال الكون.. من خلقه؟! ومن أوجده؟! وكأن الحبيب ﷺ لم يكن يعرف خالق الكون وموجده! وأنه ما كان موحدا! وما كان يتعبد بديانة جده خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام! ثم ألم يكن الحبيب ﷺ عالما بأنه النبي الخاتم الموعود! لاسيما وأن أكثر هؤلاء تجدهم يذكرون في كتبهم قصة الراهب بحيرا والراهب نسطورا وقصصاً أخرى صاحَبَها الحبيب ﷺ منذ صباه الى مبعثه.. كلها تخبر بنبوته ﷺ ! فكيف فاتهم ذلك الشيء؟!

البعثة المباركة

ذكرنا فيما مضى أن الحبيب صلى الله عليه وآله كان يتعبد ويتأمل في غار حراء، وهو يقع في جبل أبي قبيس ضمن الرقعة الجغرافية التي لا تبعد عن مكة المكرمة إلّا فراسخ معدودة، وفي احدى الايام وقد بلغ عمره الشريف حينها الاربعين كان نبينا محمد صلى الله عليه وآله كدأبه يتعبد في هذا الغار ويفكر في حال الكون والعالم.. ويفكر في قدرة الخالق العظيم الذي أبدع في تكوين العالم وما فيه!! وبينما هو مستلق غارق في تأملاته الملكوتية نزل عليه الوحي الالهي فقال له: «**اقرأ..**» فقال صلى الله عليه وآله: «**ماذا أقرأ**»؟ فقال الوحي جبرائيل عليه السلام: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾(١)، حينئذ قرأها روحي فداه صلى الله عليه وآله وذهب الملك بعد أن استوعب السورة قلب الحبيب صلى الله عليه وآله.

إن هذا الموقف العظيم قد ترك في قلب النبي صلى الله عليه وآله من الرهبة والهيبة ما لا يوصف! خشية من الله تعالى! كيف لا وقد كان في حضرة القدس الالهي، ومحط تكليف الباري سبحانه! فالمؤمنون العاديون إذا ذكر

(١) العلق: ١-٥.

اسم الله وجلت قلوبهم واقشعرت جلودهم! فكيف بالحبيب صلى الله عليه وآله سيد الخلائق والناس أجمعين!

نزل الحبيب صلى الله عليه وآله من الجبل وهو يرتعد هيبة وتعظيما لله جل شأنه، وورد عليه من كبير شأنه ما جعله في رجفة خشية لله العظيم! وفي الوقت نفسه فالمهمة ليست بالسهلة والهيّنة اطلاقا! مجتمع نشأ وترعرع على عبادة الاصنام! وأُناس تطبعت قلوبهم على تلك الوثنية! ومصالح ورغبات وملذات شائعة على النبي صلى الله عليه وآله أن يعمل على تحرير الناس منها! بل هنالك من زعماء قريش من جمع أموالاً طائلة وثروات هائلة من خلال أعمال محرمة على صاحب الدين الجديد أن يقضي عليها وأن يقتلع جذورها!! إنها عملية كبيرة جدا وفي غاية الخطورة!!

إن في طريق عودته صلى الله عليه وآله كان جبرائيل عليه السلام يظهر له بين الحين والآخر مبشرا له بهذا الشرف العظيم والمنصب الالهي الكريم.. منصب النبوة الخاتمة والهداية الدائمة الى قيام يوم الدين.. ولما وصل صلى الله عليه وآله الى بيته رأته زوجته الطاهرة الوفية خديجة عليها السلام وهو في حال الفزِع المرتعِد المذهول! فخاطبته: «ما بك يا محمد»؟ فأجابها: «**دثروني، دثروني**»!

سارعت الزوجة الصالحة النقية فدثرته، وقد ارتعدت هي الاخرى مما رأته على وجه الحبيب صلى الله عليه وآله! فقالت له: «يا أبا القاسم، بالله ماذا جرى لك»؟ أخبرها روحي فداه بما حصل له ورآه، فأخذت السيدة خديجة

حينئذ تؤازره وتبث في نفسه الراحة والهدوء والسكينة، بما كان يحمله من علامات ودلالات واضحة على نبوته صلى الله عليه وآله منذ صباه والى بلوغه! فقالت له: «والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسي المعدم، وتعين على نوائب الدهر.. ابشر يا بن عمّي واثبت»(١).. وكانت خديجة زوجة مثالية بكل ما تحمله الكلمة من معنى! أخذت تشد على يديه وتؤازره منذ البدء، وتعضده وتسنده بنفسها وبكل ما تملك! وقد كانت أول من اسلم وحظي بشرف الاسلام، كما اسلم معها الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام، فهما أول من أسلم، وأجابا دعوة النبي صلى الله عليه وآله.. فعلي عليه السلام كان يقيم مع النبي صلى الله عليه وآله في بيته، وذلك عندما أصيبت قريش بأزمة شديدة لم يستطع معها أبو طالب أن يعيل أسرته الكبيرة، فاقترح حينها النبي صلى الله عليه وآله على عمه العباس الذي كان من أغنى بني هاشم مالا أن يذهبا الى أبي طالب ليخففا عنه من العيال، فيأخذ النبي رجلا والعباس يأخذ رجلا آخر ليكفلاهما عنه.. فكفل العباس جعفرا وكفل الحبيب صلى الله عليه وآله عليا.. ولم يزل الامام مع النبي صلى الله عليه وآله الى أن بعثه الله الى هذه الامة رسولا ونبيا. وقد أفصح الامام علي عليه السلام عن ذلك الشيء في إحدى خطبه التي قال فيها: «**لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لي في كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُني بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ في كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَ لاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ**

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج١، ص٢٥٤.

اللهِ صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، وَ لَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرى مَا أَرى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلى خَيْرٍ»[(١)].

ولابد من القول أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن كما صور الغالبية من كتّاب السيرة من القدماء والمحدثين! عندما يوردون تلك الأخبار التي تحدثت عن الوحي وما رافقه من أحداث! والتي صورت عدم معرفته صلى الله عليه وآله لما جرى! وماذا يعني! وكأنه لم يكن يعرف قدر نفسه وقربه من الله جل جلاله! فهو مؤمن تمام الايمان اتجاه ربه، كما كان مطمئنا بهذا الجانب! لأن هذا شيء والخوف من الله والارتعاد والذهول من هول الموقف شيء آخر! فيا للعجب كيف يصور البعض النبي صلى الله عليه وآله بالمضطرب والخائف الذي وصل به الحال الى أنه أراد أن ينتحر في الوقت الذي يريده الله للنبوة!

كما حشرت في القضية شخصية ورقة بن نوفل الذي جعلوه أدرى من محمد صلى الله عليه وآله بنفسه وربه! فصاحب الرسالة لم يتضح له كما يصورون الامر ولم يعرف أبعاد رسالته! وورقة هو الذي يفيض عليه بالطمأنينة والاستقرار! بينما نجد أن القرآن الكريم يصرح على أن النبي صلى الله عليه وآله كان

(١) تمام نهج البلاغة: ج٢، ص٧٤-٧٥.

على بينة من ربه.. وهو الذي يهدي الناس لا أن الناس تهديه!! فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبي**﴾(١). وقال أيضا: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(٢). وغيرها من الآيات التي تصور النبي صلى الله عليه وآله أنه كان على دراية من أمره، وأنه كان على وعي وفهم واستيعاب للوحي، وليس له حاجة الى ورقة ابن نوفل أو غيره كي يبشره بأنه النبي الموعود به بعد عيسى عليه السلام! إضافة الى ذلك فإن هذه الروايات التي تحدثت عن ورقة ودوره في إعلام النبي صلى الله عليه وآله بأنه النبي الخاتم قد اتسمت بالضعف الإسنادي فضلا عن الضعف الدلالي الذي بيناه سلفا!

(١) الانعام: ٥٧.

(٢) يوسف: ١٠٨.

بشارة التوراة بالنبي صلى الله عليه وآله!

لم يعد خافيا أن الكتاب المقدس عند اليهود والمعروف بالعهد القديم قد بشر بالرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، وأن الدين الذي سيأتي به هو خاتم الاديان!! فمثلا نجد فيه اشارة واضحة الى الرسول المعظم صلى الله عليه وآله، وذلك في سفر التكوين عند قول الرب لإبراهيم الخليل عليه السلام ما نصه:

ليشماعيل شمعتيخا

كي هنيه بيرختي أوتو

وي هر بيتي أوتو بمئود مئود

شنيم عسار نسيئيم يوليد

قي نتتيف لكَ وي كَ دول[1].

والمعنى كما ينقل الثقات ممن يجيد العبرية ويتقنها جدا واضح، وهو أن الرب استجاب دعوة نبي الله ابراهيم في اسماعيل عليه السلام بقوله: «**وإسماعيل أباركه وأثمره وأكثره جدا جدا، واثنا عشر إماما يلد، وأجعله**

---

(١) سفر التكوين ١٧ : ٢٠. ونظيره في الإصحاح ٢١ : ١٨ من السفر نفسه من التوراة العبرانية.

أمة كبيرة»، فهذا الكلام العبري يدلل بشكل صريح الى اسم الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله في كلمة (بمئود مئود)، ورغم كل التحريف الذي حصل في التوراة قبل البعثة النبوية وبعدها إلّا أننا نجد أن كثيرا من النصوص التوراتية التي يمكن الاستدلال بها على صحة نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله قد حفظتها يد الغيب من أن تنالها يد أعوان الشيطان بالعبث والتغيير، وفي هذا قمة الاحتجاج وإلزام الخصم بخاتمية اسلام محمد صلى الله عليه وآله، وفوق ذلك نجد أن الواقع يصدق المعنى الذي جاء به النص التوراتي السابق؛ لأن اسماعيل النبي انما عظم وازداد شرفا بمحمد الحبيب صلى الله عليه وآله ..

كما أن هذه البشارات كانت تدل على أن ظهور هذا النبي سيكون في المنطقة العربية! وتحديدا أرض مكة! فقد جاء في التوراة التي يتداولها القوم الى الآن: «**وهذه هي البركة، التي بارك بها موسى رجل الله بني اسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران**»[(١)].

وفاران اسم قديم لمكة، ولم يظهر نبي فيها غير النبي محمد صلى الله عليه وآله الذي هو من نسل ابراهيم عليه السلام الذي جعلها الباري سبحانه أرض غربته كما جاء في التوراة: «**وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل**

(١) سفر التثنية، الإصحاح٣٣ الفقرة١، عن الصحيح من السيرة للعاملي، ١١٥.

أرض كنعان، ملكا أبديا»[١].

فالواقع التاريخي ينطبق على مكة التي جعلها الله سبحانه أرض غربة لإبراهيم؛ لأنه اسكن فيها أهله بعد المشيئة الربانية لذلك..

(١) سفر التكوين، الاصحاح ١٧، الفقرة٨، عن الصحيح من السيرة، ١١٥.

بشارة الانجيل

أما الذي ذُكر في النصوص المسيحية الانجيلية ففيه من الاشارات الدامغة الى مجيء النبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله بعد النبي عيسى عليه السلام، وأن اسمه هو أحمد، ويجب على المسيحيين أن يصدقوه ويؤمنوا به، وأن الطاعة له هي طاعة للسيد المسيح عليه السلام.. ومما جاء في انجيل يوحنا ماترجمته:

إم أهقتم اوتي إت متسقوتاتي تشمعوا

قانّي إشأﻻ مياقي في هو ينين ﻻخم

برقليط أحير أشير يشكون إتخم ﻻم نيتسح[1].

(إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الاب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم الى الابد!).

والمسيح عليه السلام يعبر عن (المبشر به) بلفظ (فارقليط)[2]، والعبارة (يتّين ﻻخم برقليط أحير) معناها: يعطيكم مستقبلا فارقليط آخر، أما العبارة (أشير يشكون إتخم ﻻنيتسح) فإن معناها: الذي سيثبت معكم

(١) يوحنا: ١٥ الاصل العبري، إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله: ص١٦٦.

(٢) قصص الانبياء للشيخ النجار: ص٣٨٩.

الى الابد... وهذه المعاني التي أتت في الانجيل أكد عليها القرآن الكريم حيث قال عز اسمه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1].

(١) الصف: ٦.

الدعوة السرية

بعد أن نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وآله بقيت الدعوة الى الاسلام دعوة سرية؛ لأن الظروف المحيطة بمكة آنذاك كانت تضغط بهذا الشيء، فالنبي صلى الله عليه وآله يعلم جيدا أن سادات قريش ورؤساءها إذا علموا بأمره لن يتركوه وحاله، وأنهم لن يدخروا جهدا في الايقاع به وبأنصاره!! لذلك رأى الرسول صلى الله عليه وآله أن من الحكمة بقاء الدعوة الى الدين الجديد سرية تمارس مع الذين يؤتمن بهم، والذين يُرتجى منهم قبول الطرح الرسالي الجديد، وهم في الوقت نفسه مستعدون أن يضحوا من أجل المبادئ الدينية الجديدة!! كما أنها فترة اعداد تربوي وروحي لمن يدخل هذا الدين، تعطي فيما بعد مجموعة من المؤمنين التقاة الثقات الذين يكونون قد تهيؤوا لمواجهة أحلك الظروف فيما إذا وقعت!! نعم وربي إنها سياسة رشيدة في بناء وإنشاء ارتكاز قوي متين من المؤمنين، يكون عضدا للنبي في دعوته فيما إذا أجهر بها لاحقا.

الجهر بالدعوة

استمرت الدعوة السرية بما يقرب من ثلاث سنين من حين البعث، بعدها صدر الأمر الالهي الى النبي صلى الله عليه وآله أن يجهر بدعوته بادئا بعشيرته الاقربين، منفذا ما جاءه من أمر من العزيز العليم: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[1]. وكذا الآية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]. ومن هنا بدأ العداء يتقد ويتصاعد، وبدت السخرية توجه الى النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه.. وذلك بعدما عمل النبي صلى الله عليه وآله وليمة دعا لها بني هاشم وبني عبد المطلب وبني نوفل وغيرهم من أبناء عبد مناف، وكان عدد الحاضرين يقرب من الاربعين رجلا، وبعد أن تناولوا الطعام بهروا بما رأوه أمام أعينهم من معجزة؛ إذ إن الطعام الذي قدمه النبي صلى الله عليه وآله كان لا يتعدى فخذاً من شاة، ومدّ بر وصاعاً من اللبن! وهو على قلته أشبع أربعين رجلا! كل واحد منهم كان يأكل ضعفه! ثم بعد ذلك دعاهم صلى الله عليه وآله الى خير الدنيا والآخرة! دعاهم الى اسلام الحق والهداية والنور المبين.. فقال لهم: «**إني والله ما**

(١) الشعراء: ٢١٤-٢١٧.

(٢) الحجر: ٩٤.

أعلم شابا من العرب قد جاء قومه بمثل ما جئتكم به.. فقد جئتكم بخير الدنيا والاخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الامر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم..» فأحجم القوم عن إجابته واستهزؤوا به وتعالت أصواتهم بالسخرية بقيادة أبي لهب، فما أجابه غير علي عليه السلام بعد أن كرر ذلك أكثر من مرة! فأخذ النبي صلى الله عليه وآله برقبة علي عليه السلام وخاطب القوم فقال: «**إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا**»(١)، لقد قرن النبي صلى الله عليه وآله دعوته الى توحيد العبادة الالهية بالدعوة الى الامامة والخلافة والوصاية والوزارة! فما أجابه عليها غير علي عليه السلام! ولابد من ذكر أن هذا المنصب -أعني الامامة- لم يترك كما يفهم هنا للصدفة أن تعينه! كما لو كان المستجيب للنبي صلى الله عليه وآله غير الامام! ولكن هنا اقتضت الحكمة والمشيئة الربانية ذلك الشيء بهذه الكيفية! وهو في الوقت نفسه اعلان لتنصيب علي عليه السلام للإمامة أمام العشرات من عشيرة الرسول صلى الله عليه وآله.. في ظرف مناسب جدا يصعب معه النكران والتحريف! وهذا ما جعل أغلب كتب القوم المعتبرة تنقله!

(١) تاريخ الطبري: ج١، ص٥٤٣. تاريخ ابن الاثير: ج٢، ص٥٤. مسند احمد بن حنبل: ج١، ص١٥٩. وعجيب من ابن كثير في تفسيره عندما يأتي بالحديث نجده يبتره بترا عجيبا!! بل إنه في أحد ألفاظ الحديث لا يذكر اللفظ بما هو بل يأتي بدلا عنه بلفظ (كذا وكذا)! فنقل الحديث: «...**فأيكم يؤازرني على هذا الامر على أن يكون أخي** وكذا وكذا»؟؟ فأحجم القوم..... ثم قال: «**إن هذا أخي**، وكذا وكذا» ج٦، ص٦٤. عجيب أمره.. في حديث واحد يكرر ما لا يريد لفظه بـ (كذا وكذا) مرتين وكأن هنالك شيئا لا يطيق ذكره!

ردة فعل قريش

يقينا ان ابا لهب وأضرابه من عشيرة النبي صلى الله عليه وآله من الذين دعاهم للطعام وبعد أن عرض عليهم مشروعه الالهي العظيم قد أذاعوا بين الناس ما دعاهم إليه من الدين الجديد، وما أبداه من تسفيه لآلهتهم من الأصنام التي اعتاد عليها مشركو مكة طيلة قرون من الزمان! ففزعت قريش من تلك الدعوة ومن ذلك المشروع فزعا شديدا! أدى ذلك الى اضطراب حياتهم، وانتشرت فيما بينهم الكراهية والبغضاء، حتى وصلت بين افراد الاسرة الواحدة! فالإسلام بعقائده التي تخاطب العقول، وبمبادئه الاصيلة وبأخلاقه العظيمة التي أسرت القلوب.. استطاع أن يجتذب نحوه فريقا من أبناء قريش المشركين! وعددا من النساء اللواتي خلعن أزواجهن؛ لأنهم ليسوا بمسلمين.. وأكثر ما استهوت الدعوة الرقيق، والمستضعفين من الناس الذين أُذيقوا أشد أصناف العذاب والتنكيل من أسيادهم القرشيين، الذين استغلوهم أبشع استغلال؛ لتحقيق مكاسبهم الشخصية! فكان لهم النبي صلى الله عليه وآله والدين الجديد الأمل في الحرية والكرامة والعزة المفقودة!

إن النبي صلى الله عليه وآله بدعوته قد أصبح هاجس قريش الأكبر.. فأقضى

مضاجعهم وصار عدوهم الأخطر؛ فهم يعلمون جيدا أن الدين الذي أتى به النبي صلى الله عليه وآله لا يرضى أبدا بالظلم والتعدي والعدوان! كما وأنهم من خلال أخلاق النبي صلى الله عليه وآله قد استشفوا وأدركوا أنه سيحاول أن يكافح تلك العادات الظالمة التي اعتادوا على فعلها واقترافها؛ لذلك فمكانتهم الاجتماعية مهددة! فلا طبقية في هذا الدين ولا أفضلية! والناس سواسية كأسنان المشط! أما حياتهم الاقتصادية فكانت هي أكثر من يهددها خطر الاسلام! لأن الدين الجديد لا يقبل بأي حال من الاحوال بالربا والاحتكار والاستغلال وما الى ذلك من الأمور التي كانت سائدة في المجتمع القريشي والمكي بشكل عام! ناهيك عن تلك الفروض التي فرضها الدين الجديد على ذوي الاموال والأغنياء في مساعدة الفقراء والمحتاجين من المسلمين.. وما أكثرهم في ذلك الزمان وفي تلك البيئات الجدبة الجرداء!

الإسراء والمعراج

حصل اختلاف في السنة التي حدث فيها الاسراء والمعراج، فمنهم من قال في السنة الخامسة من البعثة، ومنهم ذهب الى السنة الثانية، وصاحب الصحيح[1] من السيرة ذهب الى السنة الثالثة متوافقا مع مذهب ابن عساكر الذي نقله ابن كثير في تاريخه[2].. وحدوث الاسراء والمعراج اتفقت عليها كل الفرق المذاهب الاسلامية؛ لأن القرآن الكريم صرح بها تصريحا مباشرا فقال عز من قال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[3]، وقال كذلك: ﴿**ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۞ لَقَدْ رَأَى**

---

(١) الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله: ج٣، ص٩٣.

(٢) البداية والنهاية: ج٣، ص١٠٨.

(٣) الاسراء: ١.

﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(١)، فهذه الآيات صريحة وبينة ولا يوجد معها أدنى مقدرة أو امكانية في التشكيك بالإسراء والمعراج.

غير أن هذا الاتفاق العام لا يعني عدم الاختلاف في الفرعيات والتفاصيل، إذ تساءل البعض هل أن الاسراء والمعراج حصل بالروح فقط أم أنه حصل بالروح والجسد معا؟ فذهب بعضهم الى الرأي الاول وذهب الاكثر الى الثاني، والقرينة الاهم على ذلك هي أن آية سورة الاسراء وآيات سورة النجم واردة في مقام الامتنان وبيان القدرة الربانية! فهل يعقل أن تعد رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وآله في منامه بأنها كرامه من الباري سبحانه بها على نبيه صلى الله عليه وآله أو أن الناس يمكن أن تعدها معجزة؟! هذا مضاف الى أنه صلى الله عليه وآله قد أخبرهم بإثبات لما ادعاه، إذ قال لهم أنه في طريق اسرائه قد صادف قافلة بأوصافها، وأن أصحابها أضلوا ناقة وكُسِرت أخرى! وبعد أن وقعوا على تلك القافلة سألوهم عن الذي أخبرهم به النبي صلى الله عليه وآله، فكان الجواب بنفس ما أخبر الحبيب صلى الله عليه وآله! كما أخبرهم عن بيت المقدس وأوصافه، وهم يعلمون جيدا أنه لم يذهب اليه أبدا! فكان طبقا لما حفظت ذاكرة البعض منهم!

(١) النجم: ٦-١٨.

الباحث عن الحق!

يعيش في الصحراء! يسمع بظهور نبي في مكة! فيسرع متحريا عن ذلك! يرسل أخاه ليأتيه بالواقع.. فلم يوفيه ما أراد! فشد الرحال بنفسه، وسار يبحث عن الاسلام! إنه أبو ذر الغفاري! الذي توجه الى المسجد الحرام، باحثا عن النبي صلى الله عليه وآله! ليتفحص عن مشروع الاسلام! جلس بعد ان طاف بالكعبة يدعو ربه بالهداية الى الحق! وأخذ يراقب الناس عسى أن يلمح من بينهم محمدا صلى الله عليه وآله أو من يرشده إليه، أخيرا جاءه علي عليه السلام بعد ان مرّ من قربه، وسأله عما يحتاجه من شيء ليقضيه له، فلم يفشِ له عما أتى به! ثم مر عليه بعد يوم ورآه بالمسجد فسأله عن حاجته ثانيا، فأخبره بذلك! فقال له علي عليه السلام: اتبعني لأرشدك الى النبي صلى الله عليه وآله ولا تدع أحدا يحس بنا! وفعلا أخذه الى النبي صلى الله عليه وآله، وبعد ان عُرِض الاسلام عليه آمن به من حينه! فأخبره النبي صلى الله عليه وآله أن قريش إذا علمت به سيؤذونه! فقال: لا أبالي ما دمنا على الحق! خرج الى البيت الحرام وصاح وسط الناس بشعار التوحيد! والاذعان بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله! فانهالت عليه قريش بالضرب المبرح كاد ان يموت لولا ان تدخل العباس بن عبد المطلب! فخلصه

منهم بعد ان وبخهم بأنه من غفار التي تسكن طريق تجارتهم الى الشام! ثم عاد في اليوم الثاني وفعل بمثل فعلته الاولى! فعادوا يضربونه حتى خلصه منهم العباس ووبخهم بمثل ما قال سابقا، فتخلص منهم أبو ذر، ثم رحل الى أهله وعشيرته يدعوهم الى الاسلام! فآمن منهم كثير، رفدوا الاسلام فيما بعد برجال ذوي معدن أصيل، وقد كان أبو ذر ضمن الأربعة الذين تشتاق لهم الجنة! بحسب وصف النبي صلى الله عليه وآله! وهم علي عليه السلام، وأبو ذر الغفاري، وسلمان والمقداد!

الانتقام والإبادة القرشية!

اتفق عتاة قريش أخيرا على محاربة النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه بكل ما أوتوا من قوة وبجميع الوسائل المتاحة،؛ لأنهم رأوا في الاسلام ومشروعه القادم معركة وجود بالنسبة لهم! فعملوا ما عملوا تجاه أتباع الدعوة خصوصا المستضعفين منهم! وصبوا جام الغضب على كل من أسلم من هؤلاء، واستهدفوهم بكل يسر وسهولة؛ فلا حصن لهم ولا معين ولا حول عندهم إلّا بالله العلي العظيم! ولنا بآل ياسر خير شاهد على ذلك، فقد أذاقهم أعداء الله أشد ألوان العذاب وأبشعه، حتى قُتل الأب والأم في سبيل هذا الدين، فرضي الله عنهما وجزاهما عن الاسلام وأهله خير جزاء المحسنين، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يمر من عندهم فيرى كيف يعذب آل ياسر فيتألم لما يراه وتأخذ به الحسرة؛ لأنه لا يستطيع أن يخلصهم من جرم الوحوش الكاسرة كأبي جهل وأضرابه! فما كان منه إلّا أن يطمئنهم، ويقوي من عزيمتهم، ويبشرهم بالقادم بعد الموت، فقال قولته الشهيرة: «**صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»[1]. أخيرا استشهد ياسر وسمية بعد أن عذبا بما لا يوصف من أنواع العذاب! أما

(١) كنز العمال: ج٦، ص٨٥.

عمار فقد أعفي عنه؛ لأنه نال من النبي صلى الله عليه وآله بإكراه منه وتقية! سارع الى النبي صلى الله عليه وآله وهو يبكي مما فعله بسببه له، فجعل النبي صلى الله عليه وآله يطمئنه ويواسيه! فقال له: «**إن عادوا فعد لهم بما قلت**»[1].

ومن الذين طالهم العذاب القرشي الجاهلي اللئيم بلال الحبشي مؤذن النبي صلى الله عليه وآله، الذي ذاق من أمية أشكال العذاب وأصنافه! فقد كان يخرجه وقت الظهيرة بعد أن يجوّعه ويعطّشه مدة يوم كامل بليلته! فيطرحه على ظهره ويضع الحجر الكبير فوقه لينال من النبي محمد صلى الله عليه وآله، وأن يذكر آلهتهم اللات والعزى بخير! وما ذكرناه غيض من فيض الواقع والمأساة؛ لأن الحديث عن تلك العذابات والآلام التي لاقاها اتباع النبي صلى الله عليه وآله لا يسع المقام أن نسهب بها، فهي تحتاج الى مجلدات حتى نستطيع أن نستوعب حيثياتها وأوجاعها المؤلمة!

---

(١) الصحيح من السيرة: ج٣، ص٧٧.

جبابرة الأعداء!

أين الطغاة الذين حاربوا الانبياء؟!وأين صار ذكرهم؟! ألم يستوعب الخلف عن السلف؟! ألم يعلموا ان الله يمهل ولا يهمل؟! أم انهم ران على قلوبهم فطبعت بالبؤس والشقاء؟!

كيف بعد المعاجز يُجحدون؟!

وكيف بعد الخوارق يعودون؟!

فهل أدمنوا على الظلم ولا يتركون؟!

مهما فعلتم فلن تثنوه

ومهما تآمرتم على الايقاع به لن تنالوه

تريدون شيئا والحق يريد

وآمالكم أضحت زهقا تليد!

بُشرا من نار لكم..

وعارا سيبقى الى الآباد بجبينكم..

أريتموه مالم يلقاه قبله من الانبياء!

وجربتم أخس ما عندكم أيها الأشقياء

حتى قال: ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت!

نعم، فالواقع المرير الذي مر به الحبيب حفظه لنا التاريخ بكل تفاصيله وحيثياته، فهم لم يدعوا وسيلة للحرب إلا وجربوها مع النبي صلى الله عليه وآله! آذوه جسديا! واتهموه بالسحر والجنون! وألّبوا الناس ضده، حتى وصل بأحدهم ان جاء والنبي صلى الله عليه وآله ساجد فألقى على ظهره أحشاء دابة! يا لها من مأساة حلت بسيد الخلق جميعا!

مع كل تلك الآلام، وكل ذلك العذاب، بقي النبي صلى الله عليه وآله ينظر الى هؤلاء بعين الرحمة والعطف، عسى ان يؤمنوا ويعودوا الى رشدهم! ولكن من دون جدوى!

فيا جبل الصبر..

ويا خيمة الخير..

ويا زمزم الأنبياء!

ويا نخلة يثرب!

تُرمى بالحجر..

فتُعطي أطيب الثمر!

خاب المكابرين..

وسيقوا الى موردهم خاسئين!

فهذا أبو لهب يرشفه لهب جهنم!

حتى غنت السماء تبت يدا أبي لهب وتب!

وامرأة حنت الى نارها.. فأنفرت تحمل الحطب!

ففازت على جيدها بوسام من مسد!

وعندما سمعت انه قد نزل فيها وفي زوجها جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله وهو عند بيت الله الحرام، ماسكة بيدها حجارة تريد ان تهشم فاه! وقفت تحدق بين الجالسين فلم تره! فقال الحبيب بعد انصرافها ان الله قد أغشى عيونها عني!

ومن أعداء النبي المبرزين أمية بن خلف بن وهب الذي كان اذا رأى النبي صلى الله عليه وآله همزه ولمزه! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**﴾، ومنهم العاص بن وائل السهمي الذي قال لأحد الصحابة: «أكفر بمحمد وأعطيك ما تريد»! فقال له الصحابي: «لا أكفر به حتى يميتك الله ثم يحييك»!

فقال الكافر الجبار: «إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد، فأنزل الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا**﴾، وهذا

كبيرهم الذي علمهم سحر العذاب! أراد يوما ان يعفر وجه النبي صلى الله عليه وآله في التراب وهو في صلاته! فما ان عزم ان يطأ رقبة الحبيب حتى بدأ ينكص على عقبيه ويتقي بيديه! وبعد ان سألوه عما جرى له مع النبي صلى الله عليه وآله قال: ان بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة! فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا**» فأنزل اللهّ فيه: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾.

ومن أعتى الطغاة الوليد بن المغيرة الذي قال: أينزّل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها! ويترك أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف! فنحن عظيما مكة والطائف.. فأنزل اللهّ تعالى في ذلك: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۞أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾، فهذه أمثلة لأطغى المعاندين.

الهجرة الى الحبشة

عمد القرشيون الى التصعيد الهمجي ضد المسلمين العزل، الذين ليس لهم قبيلة تحميهم! عند ذلك أيقن النبي ﷺ أن لا خلاص لهذه الثلة المؤمنة إلّا بالهجرة من مكة والرحيل صوب ملاذ آمن، فوقع اختيار النبي ﷺ على الحبشة التي كان يحكمها ملك عادل، فخرج المسلمون من مكة سرا بشكل متفرق؛ كي لا يُدرَكوا من الكفار الظالمين، حتى وصلوا الى الساحل المطل على البحر الاحمر الذي يفصل بين الجزيرة العربية والحبشة، وهناك أقلتهم سفينة الى بلاد الأمن والأمان.. وحلوا ضيوفا عند النجاشي ملك الحبشة، الذي أكرمهم وأحسن إليهم، ولم يقبل المساومة في تسليمهم الى قريش رغم الهدايا والأعطيات التي وهبت له منهم!! فقد كان بحق نعم المجير لهم.. بل يحدثنا التاريخ أنه تحمل جراء ذلك القلاقل والاضطرابات! حيث ثارت عليه بعض المجموعات من رعيته الذين شكّوا بأنه ترك المسيحية ودخل الدين الذي أتى به المهاجرون العرب!! وليس بعيدا أن يكون هذا الملك قد دخل الاسلام لما وجد فيه من قيم راقية وسامية! وما أيقنه من مبادئ لا تقاطع تلك المبادئ التي جاء بها المسيح عليه السلام! خصوصا إذا علمنا أن

النجاشي عندما استفهم عن الدين الجديد في حواره مع جعفر بن ابي طالب عليه السلام قد قال أن لا فرق بين الاسلام والمسيحية التي جاء بها النبي عيسى عليه السلام سوى خط خطه أمام الناس الحضور جميعا! وعلى كل حال فقد كان للنجاشي دور كبير جدا في حماية المسلمين الأوائل من الإبادة القرشية!

دور أبي طالب عليه السلام وأهميته

مثلما كان أبو طالب حضنا حنونا ودافئا لطفولة النبي ﷺ! صار الملاذ والدرع الحامي عنه ﷺ أثناء الكبر.. عندما تكالبت عليه ﷺ قوى الشر والظلام والعدوان! التي لا تريد الخير للإنسان والبرية! نعم فتلك الهيبة وذلك البهاء العظيم المشرئب في شخصية شيخ الأباطح.. جعل منه حصنا يتحصن به الحبيب ﷺ! وظلا يستظل به من نار البغض والمكر والانتقام! فكان زعماء الكافرين كثيرا ما يذهبون الى أبي طالب ويوسطونه في قضية ابن أخيه، كما عرضوا من خلاله على النبي ﷺ المغريات الكثيرة من الأموال والنساء على أن يترك أمر هذا الدين! فهم لم يوغلوا بعد في إيذائه احتراما لأبي طالب وتهيبا منه! الذي كان يمثل زعامة بني هاشم! كما أن أباه شيبة الحمد عبد المطلب قد كان زعيم قريش الأوحد! ومعلوم أن الاحترام القرشي لأبي طالب بقي الى وقت ما دون أن يتأثر بكرههم وعدائهم لابن أخيه محمد ﷺ! وأعتقد أن لذلك أكثر من سبب وأكثر من عامل، بغض النظر عن تلك الزعامة، وأهم تلك العوامل على الاطلاق هو التظاهر الذي اتبعه أبو طالب بالبقاء على دين قريش! فهو لم يبين للمشركين أبدا إيمانه بالرسالة الاسلامية.. وربي إنه حسنا فعل! فهو كمؤمن آل فرعون وغيره من الذين كتموا ايمانهم

لغاية ربما تكون أسمى من إعلانه والجهر به؛ لأن المشروع الرسالي الذي يسير عكس التيار المتجبر الظالم.. لابد له من شخصيات تملك الحنكة السياسية والتكتيك العقلائي.. تعطي من خلاله مددا وعونا لأصحاب ذلك المشروع من دون أن يشعر العدو المتغطرس، وهذا عمل في غاية الحكمة والرشاد أمام عدو شرس بلا إنسانية.. لا يتوانى في إبادة أعدائه عن بكرة أبيهم!

لا شك ان ابا طالب لو كان قد اعلن اسلامه لما استطاع ان يكون سندا للنبي صلى الله عليه وآله ودرعا يحتمي به، فهذا الدور الذي اتخذه شيخ البطحاء كان أهم بكثير من اعلان اسلامه! لأن الاحترام القرشي له والهيبة هو الذي حال وتصفية النبي صلى الله عليه وآله في بدايات دعوته! وهو الذي حال وتكالبهم على بني هاشم!

وقد جاء عن الامام الصادق عليه السلام: «**إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الايمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرتين**»[1]، كما أن الامام علياً عليه السلام قد قال بكتم ايمان ابي طالب خوفا على بني هاشم من أن تنابذها قريش[2].

وأعتقد جازما أن أبا طالب ما عمل ذلك إلّا بعد استشارة الحبيب صلى الله عليه وآله وإجازته؛ لعلمه صلى الله عليه وآله بحاجة الدعوة وقائدها الى شخصية

(١) اصول الكافي: ج١، ص٣٧٣. تفسير ابي الفتوح: ج٤، ص٢١٢.
(٢) أمالي الصدوق: ص٥٥٠.

كأبي طالب.. يستطيع من خلال مكانته الاجتماعية بين القرشيين من أهل العقد والحل أن يحتمي به ولو لوقت معين، فيكون بذلك قد استطاع تثبيت ما يمكن تثبيته من دعائم الدين الجديد، في ظرف استثنائي عصيب.

إيمان أبي طالب

إن أدلة ايمان ابي طالب عليه السلام عديدة وغاية في الاثبات والتوكيد.. ومنها ما ذكرناه من تصريح آل البيت عليهم السلام بذلك، فهم ذريته وعقبه، وأهل البيت أدرى بما فيه، كما أنه عليه السلام قد أجادت قريحته بأشعار فيها قمة المدح والثناء على الحبيب صلى الله عليه وآله! من مثل قصيدة مطلعها:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصمة للأرامل
يطيف به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

ثم يقول في بيتين من القصيدة نفسها مصرحا بما يعتقده في النبي صلى الله عليه وآله:

فأيّده ربّ العباد بنصره
وأظهر دينا حقه غير باطل
لقد علموا أن ابننا لا مُكذَّب
لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

وهذه القصيدة كان بنو هاشم يعلمونها أطفالهم[(١)]، حتى عدها البعض من النقاد العرب القدامى[(٢)] بأنها أول قصيدة قيلت في مدح النبي صلى الله عليه وآله! بل ان ابن كثير الدمشقي ذكر في سيرته وتاريخه[(٣)] هذه القصيدة وعلق عليها بأنها «قصيدة عظيمة بليغة جدا، لا يستطيع ان يقولها إلّا من نسبت إليه! وهي أفحل من المعلقات السبع! وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعا!».

وقد ذكر المؤرخون أنه صلى الله عليه وآله في أحد مواسم الجدب قد استسقى صلى الله عليه وآله، وما إن فرغ من صلاته حتى هطل المطر وفيرا.. حينها تذكر الحبيب صلى الله عليه وآله قصيدة عمه ابي طالب! مما جعل يستغفر له ويدعو! فهل يدعو الرسول صلى الله عليه وآله لمشرك؟! وأين هم عما قاله لسفانة بنت حاتم الطائي التي أسّرها المسلمون: «**لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه**»[(٤)].. وكل المواقف التي انتهجها ابو طالب كانت تدلل على ايمانه بالرسالة المحمدية، وأنه لم يكن بداعي العصبية كما كان يدعي المعاندون! حتى أنهم ذكروا وما زالوا في كتبهم أن النبي صلى الله عليه وآله قد حزن على موت ابي طالب حزنا شديدا! لأنه كان الحامي والسند والمعين له في أمره! فكيف يحزن الحبيب صلى الله عليه وآله على موت مشرك؟!

---

(١) مقاتل الطالبيين: ص ٣٩٦.
(٢) كابن سلام الجمحي ت ٢٣١هـ.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ج١، ص٤٩١. البداية والنهاية: ج٣، ص٥٧.
(٤) شجرة طوبى للحائري: ج٢، ص٢٤١.

حصار الهاشميين والتضييق عليهم!

إن الغطاء والحماية التي تمتع بها النبي صلى الله عليه وآله من وجود أبي طالب لم تدم الى آخر المطاف! فزعماء الحزب القرشي قد تيقنوا أن لا فائدة من الاستمرار في ذلك؛ لأن الأمور إن استمرت على هذا المنوال فخسارتهم أكيدة! حينئذ اتفقوا على كتابة صحيفة تعاقدوا فيها على عدم التعامل مع بني هاشم! فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، ولا يبيعونهم ولا يشترون منهم، ولا يجتمعون معهم بأمر أو قضية، أو يرجع النبي صلى الله عليه وآله عن أمر الرسالة، أو يسلمونه إياهم ليفعلوا فيه ما هم يرونه! وقد وقّع على هذه الصحيفة زعماء قريش ووجهاؤها، بما يقرب من أربعين رجلاً، ختموها وعلّقوها داخل الكعبة.

هكذا أصبح الهاشميون ومن معهم ممن بقي من المسلمين في حصار اقتصادي واجتماعي خانق! لذلك قرر النبي صلى الله عليه وآله ان يتوجه بمعية عشيرته واتباعه الى شعب عمه ابي طالب، فلم تدع قريش أيا من الناس يأتي إليهم و يبيعهم، وانتشر الجوع بينهم، وبدأ صبيانهم ونساؤهم يتلوون جوعا! حتى لجؤوا الى ورق الشجر والنبات يقتاتون عليه! ولم تكن للهاشميين ومن معهم من المؤمنين أي فرصة لشراء الطعام

سوى أيام الحج! حيث كانوا يستغلون تلك الايام التي يأتي الناس فيها الى مكة حاملين معهم البضائع والاطعمة الكثيرة ليتجروا بها مع أهل مكة، أما في بقية الايام فإن علياً عليه السلام كان يتسلل الى المدينة خلسة! فيشتري طعاما ويأتي به الى المحاصرين في الشعب! ولولا مال خديجة لما استطاع النبي صلى الله عليه وآله ومن معه من تحمل تلك الشدة التي استمرت ثلاث سنوات تقريبا! حتى استنفد ذلك الحصار المشؤوم معظم الأموال التي كانت مع المحاصرين، التي يعود معظمها الى خديجة وابي طالب عليهما السلام .

لقد راهن الكفار القرشيون على عدم تحمل عشيرة النبي صلى الله عليه وآله ذلك الحصار وتلك الشدة، وظنوا أنهم لا قبل لهم بذلك! وأنهم سينفرون عن النبي صلى الله عليه وآله ويتخلون عنه فيما بعد! عندها سيكون وحيدا لا حماية له قبلهم! لكنهم خسئوا وخابوا! فأعطى الهواشم ومن معهم جميعا درسا رائعا في الصبر وتحمل الشدائد في سبيل الدين والعقيدة والمبادئ! حتى جاءهم النصر الإلهي بالأرضة! نعم حشرة صغيرة جدا سلطها جل وعلا على الصحيفة المشؤومة! فالتهمتها ولم تبقَ منها سوى اسمه تعالى! سارع الحبيب صلى الله عليه وآله بعد أن أعلمه الوحي بذلك الى عمه ابي طالب ليخبره بالنبأ السار! فسارع ابو طالب الى أصحاب الصحيفة من قريش ليتفاوض معهم، طارحا عليهم ما قاله النبي صلى الله عليه وآله، قائلا لهم: ان كان ما قال محمد صحيحا فعليكم ان تنتهوا عن حصارنا وقطيعتنا، وان كان كاذبا سلمناه لكم تفعلون به ما تريدون!!

قبل القرشيون ذلك العرض بكل حفاوة! وتوهموا أنه آن الاوان أن يظفروا بما يريدون! فمحمد كما ظنّوا قاب قوسين أو أدنى من الوقوع بأيديهم! وعندما وصلوا الى الكعبة صُدموا وذُهلوا بما رأوه! لقد صدق النبي ﷺ بما أخبر عمه! فخابوا ثانيا وزادوا حقدا على النبي ورسالته! غير أن نبأ الأرضة وما فعلته بالصحيفة انتشر بين الناس! فتشجع بعض من قريش ممن كان قد تعاطف مع الهاشميين في شدتهم، وشكلوا معارضة قوية لكسر الحصار الظالم! واستطاعوا أخيرا من ان يستميلوا كثيرا من الناس اليهم، مما ادى الى انتهاء محنة الهاشميين وتقوية شوكتهم! وعاد النبي ﷺ يدعو الناس من جديد الى ربه، فانطوت بذلك صفحة من صفحات الألم والعذاب القرشي، وخابوا فيما يمكرون.

عام الحزن

فشل حصار قريش لبني هاشم، ومرت السنين، وأخذت الاحداث تسرع، وصار ابو طالب كهلا كبيرا، قريباً من الرحيل الى ربه، وبدأ الضعف يدب في بدنه! فتناولته الامراض من كل جانب! وأخذ يشعر بدنو أجله! فأوصى بنيه وأهله وصية تمثل القمة في قيمها الاسلامية السامية! من حيث أوصاهم بلزوم الاخلاق الحميدة والآداب الرشيدة! خاتما إياها بأهم ما يريده فيها، وهو الحفاظ على النبي صلى الله عليه وآله والدفاع عنه!

ولم تمض سوى ايام حتى توفي الحامي والمدافع، ففجع النبي صلى الله عليه وآله لرحيل العم والناصر والسند والمعين.. وفجع معه الامام علي الابن البار والرشيد لابي طالب، فأمر النبي صلى الله عليه وآله عليا عليه السلام بتغسيل والده، وفي أثناء التشييع اعترض الرسول جنازة عمه، وهو يخاطب الفقيد بما يليق به! فقال: «**وصلت رحماً، وجزيت خيراً يا عم، فلقد ربيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً**»[1].

وبعد مدة حصل شيء آخر، لم يكن بالحسبان، إذ هجم المرض

(١) الصحيح من السيرة للعاملي: ج٤، ص٢١.

على ام المؤمنين خديجة! سكن النبي صلى الله عليه وآله وفراشه! تلك المرأة التي بذلت ثروتها الكبيرة في سبيل الاسلام! نعم فصاحبة الثراء العريض لم يبق لها آخر حياتها حصير تجلس عليه! فلله درها من مجاهدة! قاسمت النبي صلى الله عليه وآله كل آلامه وعذاباته! وأجهدت نفسها تهون عليه الشدائد والمحن! وفوق ذلك بذلت كل ما تملك من أموال جمعتها بجهد السنين لزوجها الحبيب صلى الله عليه وآله في سبيل اعلاء كلمة الله ودينه الجديد.

أخيرا فجع الحبيب صلى الله عليه وآله بها! بعد أن لفظت أنفاسها الاخيرة، وصعدت روحها الطاهرة الى بارئها، حاملة معها الألم والحسرة على زوج تحيطه الذئاب والكواسر! وبنت صغيرة تنتظر الابتلاءات العظيمة! رحلت بعد ان اوصت الحبيب صلى الله عليه وآله بالطفلة البريئة فاطمة عليها السلام! رحلت بقلب يملؤه الهم والغم! واللوع والألم! ساعد الله قلب ام المؤمنين عليها السلام! وقلب النبي صلى الله عليه وآله بذلك الحال!!

ها هو الموت يختطف الزوجة العظيمة، التي تعجز الكلمات أن تصف ما كانت عليه من الوفاء والنبل، والشرف والصدق، والجهاد والايمان! تلك المرأة التي ملأت قلب زوجها مودة وعطفا ومسرات! فها هو الموت يجيء ثانيا ليبتلي النبي صلى الله عليه وآله بفقد خديجة، بعد أن فقد أبا طالب! فطغى على الحبيب حزنه! وأجهدت عيناه في ذرف الدموع! وصار الانكسار يغمر شخصه العظيم! حتى سمي ذلك العام بعام الحزن!

التحرك باتجاه الطائف

بعد وفاة حصن النبي صلى الله عليه وآله وناصره أدرك النبي صلى الله عليه وآله بأن لا بد من تحرك خارج مكة؛ لأن عصارتها من الايمان قد استخرجت ونفدت! حيث إن اهلها قد محصوا جميعا، فارتأى صلى الله عليه وآله أن يتجه الى خارج مكة، فوقع الاختيار على الطائف.

خرج اليها النبي صلى الله عليه وآله بمعية بعض اصحابه وعلى رأسهم علي بن ابي طالب عليه السلام، حيث اقاموا فيها بما يقرب من عشرة أيام أو أكثر، متجولا صلى الله عليه وآله بين ناسها وقبائلها يدعوهم الى دين الحق والتوحيد، ومنذرهم عاقبة إدبارهم والوعيد! فرفضوا أن يجيبوا دعوته! وقابلوه بالطرد من ديارهم! لأنهم يخشون قريشاً وسطوتها! بل إن وضعهم الاقتصادي تتحكم به مكة؛ لأنها تمثل سوقا لمنتوجاتهم الزراعية، فإذا ما تجابهوا معها فسوف تكسد بضاعاتهم، ولن يجدوا لها مستهلكا!

وقد ذهبت الطائف الى أكثر من طردهم النبي صلى الله عليه وآله! إذ جعلوا صبيانهم على جوانب الطرق ليقذفوا النبي صلى الله عليه وآله واصحابه بالحجارة عند المرور بها! مع اطلاق الشتائم والسباب القبيح! حتى رجع روحي فداه الى مكة متألما ومتحسرا على أمة لم تقبل الهداية! في قبال مصالح زائفة

وزائلة!

ومما يجدر بنا ذكره هنا أنه صلى الله عليه وآله بعد الطائف تحرك باتجاه القبائل القريبة من مكة يدعوها الى دين الله، وهذه القبائل هي بنو حنيفة وبنو شيبان وبنو كندة وعامر وثقيف وغيرهم، كلها لم تستجب للنبي صلى الله عليه وآله بما يرضي الله وبما يكون لهم خيرا في الدنيا والاخرة!

حمزة يعز النبي صلى الله عليه وآله ودينه!

هذا الحبيب يجوب مكة بلا ركن يستنده! وها هي الأشرار الطاغية أوغلت باعتدائها عليه! رحل العم المهيب أبو طالب عليه السلام وترك ابن أخيه بين الضباع الغادرة! والوحوش الماكرة!

فقد وصل الحال بأحد زعماء الكفر وهو أبو جهل ان يجد النبي صلى الله عليه وآله عند الصفا وحيدا! فيقوم بشتمه وسبه وإلقاء كلام الفحش عليه! فلم يجبه النبي صلى الله عليه وآله بشيء! ولم يكن سكوته خوفا وجبنا! حاشاه فهذا الذي كان يقول فيه علي عليه السلام وهو العلم بالشجاعة والبطولة: كنا اذا حمي الوطيس لذنا برسول الله!! لكن سكوته حتما لحكمة يعلمها الله ورسوله!

وكان من تخطيط القدر ان سمعت جارية ما جرى للنبي صلى الله عليه وآله مع ابي جهل، فصادفها حمزة بن عبد المطلب عائدا لتوه من صيده وفي يده قوسه، فأخبرته بما فعل الطاغي بابن أخيه! فأسرع من حينه الى الكعبة حيث كانت مجالس الطغاة هناك! وقد كان من عادة حمزة عندما يرجع من الصيد ان يطوف بالبيت قبل ان يذهب الى بيته!

دخل الأسد الثائر بيت ربه الحرام، ها هو يخط الخطا لمجد يخلده أبدا! حاملا لأهل الشرك صفعة قوية! ما إن وصل سلمها لأبي الجهل نيابة عنهم! الذي تلقاها بقلب كاد ان ينفطر ذلا وخزيا وانكسارا! معلنا أمامهم جميعا أنه على دين الاسلام! فيا لعز الاسلام ونبيه بحمزة! الذي كان يخفي إيمانه كأخيه أبي طالب عليه السلام لحكمة تصب في صالح النبي صلى الله عليه وآله وأتباعه.

العِوض المبارك!

حدث في حركة الدعوة الاسلامية انعطافة جديدة! ذلك حينما صادف النبي وهو في العقبة رهط من الخزرج، فقال لهم: «**من أين انتم**»؟ فأجابوه: من الخزرج. فقال ﷺ: «**من موالي اليهود**»؟ قالوا: نعم. فقال لهم ﷺ: «**تجلسون اكلمكم**»؟ قالوا: بلى.

فأخذ ﷺ يعرض عليهم الاسلام ويبين مضامينه الحافلة بالقيم السامية والاخلاق الراقية والمبادئ السمحة! وهو يتلو عليهم كلام العزيز الجليل الذي أذهل أرباب اللغة وفرسانها! فنفذ كلام الحبيب الى تلك القلوب التواقة الى الخلاص من التشرذم والتيه والانحطاط! وأسر عقولهم أسرا! فكان لهم ﷺ ماء سفح بأرض عطاش حل بها قحط شديد!

أعلن هؤلاء النفر من يثرب اسلامهم، وبايعوا النبي ﷺ فيما سمي لاحقا ببيعة العقبة الاولى، وقفلوا راجعين الى اهليهم وديارهم في يثرب، يبشرونهم بالدين الجديد، ونبيه الكريم.. فشاع الخبر بين عرب يثرب، وتاقت نفوس الكثير منهم الى ذلك! حتى أرسلوا الى النبي ﷺ وفدا يطلبون فيه أن يرسل لهم ﷺ مبلِّغا وداعيا دينيا يعلمهم مبادئ

الاسلام واحكامه السامية، فأجاب الحبيب صلى الله عليه وآله طلبتهم، وأوفد لتلك المهمة مصعب بن عمير، الشاب الصبيح والفاضل والفقيه، الذي ما إن وصل حتى أخذ يعمل بما كلف به بأتم وجه، وأحسن طريقة، حتى انتشر الاسلام في اوساط عرب يثرب كالنار في الهشيم! فكان أول سفير بعد جعفر بن ابي طالب عليه السلام قد نجح في سفارته نجاحا باهرا!

وبعد أن قرب موسم الحج قرر كثير من اهل يثرب السفر الى مكة؛ من اجل لقاء النبي صلى الله عليه وآله، وفعلا أتى الموسم وسافرت القوافل التي تتلهف الى الحبيب صلى الله عليه وآله! حتى حصل الاتفاق بين وفدهم والنبي صلى الله عليه وآله باللقاء ليلا في العقبة، لكي لا تعلم قريش بهم.. وبعد اللقاء حصلت بيعة العقبة الثانية، فلله در من بايع وثبت على عهده فصار مصداق قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**[١].

هكذا حصلت بيعة الرجال، وأما النساء فكانت بيعتهن عن طريق قدح ماء غمس فيه النبي صلى الله عليه وآله يده، ومن ثم طلب من النساء أن يغمسن فيه ايديهن، بعدها طلب من اليثربيين أن يختاروا اثني عشر نقيبا يمثلونهم؛ ليكونوا كفلاءهم على ما تعاهدوا عليه! وسيكون النبي صلى الله عليه وآله كفيلا لمسلمي مكة، وتعاهدوا على الدفاع المشترك، والتكافل الاجتماعي، وأن يكونوا معا بركب واحد، فالخير يعم الجميع، والأذى

(١) الفتح: ١٠.

كذلك.. وهكذا فقد عُوِّض النبي صلى الله عليه وآله عن المكيين بأُناس عاهدوا الله أن يبذلوا الغالي والنفيس في سبيل شريعة الحق، والدفاع عنها وعن حامل لوائها المبعوث رحمة للعالمين!

يثرب قبل الهجرة

يثرب مدينة تقع الى الشمال من مكة المكرمة، تمتاز بأنها أرض زراعية خصبة، كما تمتاز بتركيبتها السكانية الخاصة، فقد سكن فيها العرب واليهود جنبا الى جنب، وأهم قبائلها العربية هما الأوس والخزرج، أما اليهود فقد نزحوا إليها هربا من البطش البابلي الذي قاده الملك الكلداني نبوخذ نصر(١)، وربما كانوا قد نزحوا الى يثرب بعد الذي لاقوه من الرومان النصارى، الذين طردوا كل اليهود من القدس، واعتبروها حرمة عليهم! وقد أرخت كتب التاريخ لكثير من الحروب والصراعات التي حدثت بين الديانتين اليهودية والنصرانية والتي كانت تجري على أرض فلسطين وما حولها، ولعل من نتائجها التي كانت نزوح بعض القبائل اليهودية الى يثرب، وهذه القبائل هي بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة، وامتاز هؤلاء اليهود بالسيادة في يثرب؛ وذلك لما لديهم من أموال طائلة، اكتسبوها من خلال ممارسة التجارة إضافة الى مهنٍ أُخر كانوا قد تميزوا بها عن عرب يثرب، وكان من أهمها الزراعة، فبقي الأوسيون والخزرجيون على حالهم من ممارسة

(١) تاريخ ابن خلدون: ج٢، ص١٢٣.

الرعي أو العمل عند اليهود كمستأجرين للعمل الزراعي وغيره، لكن الحال لم يبق كذلك، فقد تنبه العرب في يثرب الى خطورة ذلك الشيء، فعملوا على التعاون مع مسيحيي الشام التابعين الى الدولة الرومانية ضد العدو المشترك وهم اليهود، وكان من نتاج هذا التعاون أن أُضعِف اليهود الى مستوى فقدوا فيه زمام الريادة في يثرب، وصار فيها العرب هم أصحاب المبادرة، لكن هذا الحال لم يدم طويلا، فقد عمد اليهود الى تكتيك جديد، استطاعوا من خلاله أخذ المبادرة واسترداد الريادة التي فقدوها، فهم بما امتلكوه من دهاء وحيلة وشيطنة أشعلوا الحرب بين الأوس والخزرج، وأثاروا بينهم حمية الجاهلية، ودسوا عملاءهم من ذوي النفوس الضعيفة التي تشترى بأبخس الأثمان! فوقع القتال والخراب بينهم، ودب الضعف في كيانهم، فرجعت اليهود سيدة ليثرب، ورجعت أموالهم تنمو وتتسع، وأضحى العرب ثانية كما كانوا، مواطنين من الدرجة الثانية، عمالاً ومأجورين يعيشون على ما يدره لهم اليهود مقابل العمل والخدمة.

لماذا استُهوِي الاسلام بيثرب خلاف مكة؟

ربما يثار سؤال في عقول البعض منا عن العلل والأسباب التي دعت الى قبول أهل يثرب بالإسلام، وكيف أنهم عملوا على احتضان النبي صلى الله عليه وآله والدفاع عنه وعن دعوته بالغالي والنفيس، والإجابة عن ذلك تحتاج الى بيان بعض الشيء من المقدمات التي ساهمت بتكوين ذلك الميل وبناء تلك المقبولية اتجاه حركة الدين الجديد المتمثل بالإسلام العظيم.

وأغلب الظن أن من العوامل التي دفعت أهل يثرب لقبول النبي صلى الله عليه وآله ودعوته هو ما كان يعانيه المجتمع العربي في تلك المدينة من تشرذم وفقر وفاقة نتيجة الحروب العبثية التي كانت مستعرة بين الأخوة الأعداء! والتي استثمرت فيما بعد من قبل اليهود؛ لإدامة تفوقهم الاجتماعي والاقتصادي والعسكري على حساب العرب في تلك المدينة! ذلك فضلا عما كان يتمتع به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من قيم وأخلاق ومؤهلات لاريب في أنها تستقطب كل من له أدنى عقل وأقل انسانية، فعرب يثرب لم يكونوا كأهل مكة من حيث الغنى الذي أمتاز به زعماء قريش، ولم يكن لهم عبيد يخدمونهم كما كان عند القريشيين، بل على العكس من ذلك! فهم كانوا موالي لليهود يستعملونهم في الزراعة

وغيرها! فعاش غالبيتهم فقراء لا يملكون إلّا قوتهم اليومي، وما يجيده عليهم أرباب العمل اليهود! هذا الشيء حسب ظني ساهم وبشكل كبير في احتفائهم بالنبي ﷺ وصحبه.

كما أن هنالك عاملا آخر أعتقد جازما أنه ساهم كثيرا في جنوح العرب اليثربيين نحو محمد ﷺ! وذلك أن اليهود كانوا على الدوام يوبخون عرب يثرب، ويشكلون عليهم الإشراك بالله، واتخاذهم الأصنام زلفى الى الله! كما كانوا يحذرونهم من أنهم إذا استمروا في شركهم بالله فإنه سبحانه سيبعث نبيا ينتقم منهم ويكون مع بني اسرائيل! لذلك كان الأوس والخزرج يتميزون عن أهل مكة وما حولها بأنهم كانوا على تماس بأحاديث الدين والسماء(١)، كما كانوا أكثر استماعا الى الأمور الروحية.. فربما علق بأذهان الكثير من عرب يثرب أخبار الغيب التي كانت تبشر بالرسول المنقذ للبشرية من الظلمات، فوجدوها تنطبق على النبي محمد ﷺ، خصوصا إذا علمنا أن اليهود كانوا على دراية بعلامات النبي وصفاته! ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ**﴾(٢)، نعم وربي إخبار إلهي مبين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهل بقيت تلك الأنباء والأخبار والعلامات النبوية المحمدية طي الكتمان عند اليهود ولم تتسرب الى الذهنية العربية ذات التماس معهم يوميا؟!

(١) هذا لا ينافي كون كثير من أخبارهم محرفة!!

(٢) البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠.

اسلوب الدعوة في مكة

مما لا يخفى أن أي فكرة تتسم بطرحها الجديد أو تبنيها سلوكا إرشاديا يحث الآخرين على التعاطي معها سواءً أكان ذلك على المستوى الديني العقائدي أم الدنيوي ستجد في ثنايا طريقها عقبات أو ما يمكن تسميته بالمطبات التي تجعل من المهمة صعبة جدا! لاسيما إذا علمنا أن الشيطان وأعوانه سوف لا يدخرون أي جهد للإيقاع بين الداعية أو المبلغ من جهة وبين المخاطبين من جهة أخرى! وذلك لإفشال الدعوة ومشروعها الإلهي.. فيكون بذلك من الضروري اتباع طرق وأساليب رشيدة في الدعوة الى الحق، خصوصا إذا كانت تلك الاساليب والفنون قد أجادها الخبير العليم على نبيه الكريم صلى الله عليه وآله.

إن تبني الاسلوب الأمثل في الدعوة الى الحق بكافة جهاته، والتمكن من فنونها الجذابة، والقدرة على الاقناع وإظهار عناصر القوة في الكلام، والتعامل به اتجاه الناس عامة كل ذلك يختزل كثيرا من الجهد والعناء وكثيرا من الخسائر، ويوفر زخما عظيما من المد البشري والمعنوي والمادي الضروري جدا في رفد حركة الدعوة والتبليغ، وضمان ديمومتها واستمرارها حتى تحقيق الاهداف! وهذا ما عمل

على اتباعه الحبيب المصطفى مع الناس منذ بداية دعوته في مكة الى أن غادرها متجها صوب يثرب! فلو تأملنا في سيرته المكية لوجدنا أن سلوكه مع الناس قد اتسم باللين والكلام المنطقي الذي يخاطب العقول النيرة، كما إنه في الوقت نفسه كان يستخدم التركيز العاطفي من خلال استقدام عملية الترغيب مرة والترهيب مرة أخرى! فمع أهل العقول يكون حكيما، ومع البسطاء يكون واعظا محسنا، أما مع أهل العناد والتكبر فقد كان صلى الله عليه وآله مجادلا مقحما لهم.. ولكنه لا يجادلهم إلّا بالتي هي أحسن!! فكان صلى الله عليه وآله تجسيدا للأمر القرآني القائل: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[١]، ولعمري إن هذا الاسلوب يلائم المخاطبين بكافة مستوياتهم الفكرية والعلمية، فهو يلائم صاحب العقلية الكبيرة، كما يلائم صاحب الفكر المتوسط، وفي الوقت ذاته يلائم البسيط في ذهنيته! فالنبي صلى الله عليه وآله لم يكن أبدا ذلك الذي تحكمه العواطف والانفعالات في تعامله مع الناس، لا سيما إذا عرفنا أنه قد لاقى من المشركين شتى أصناف العذاب والأذى والألم ما لم يلقاه أحد من الناس أجمعين!! فهو القائل: ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت!! مع كل ذلك وجدناه ينهى أتباعه من سب الأعداء والمشركين! فكان مثلا أعلى لمراد الرحمن القائل في قرآنه: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ**

---

(١) النحل: ١٢٥.

اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

هـذا أسلوب النبي في الـدعـوة، وهـذه أخلاقه التي يشهد لها التأريخ.. لا تُغير بدعوى عدو معاند لدود! ولا بسلوك من أريد لهم أن يُحسبوا على هذا الدين الذي يرفض أفعالهم الاجرامية قبل أي أحد! إنه نبي الرحمة لا نبي الحرب والدماء والدمار! وكل الحروب التي وقعت في عهده صلى الله عليه وآله كانت قد فرضت عليه فرضا! نعم، إن القتل والتشريد والتهجير والسلب الذي تعرض له اتباع الدين الجديد في عهد الدعوة المكي! كان قد فرض على النبي صلى الله عليه وآله وبعد الإذن الالهي أن يشهر سيفه بمعية صحبه المستضعفين؛ للدفاع عن أنفسهم والحفاظ على ذويهم من الإبادة القرشية! فلغة الحرب في الإسلام وأدبياته كانت حالة عرضية مفروضة وغير أصيلة.. فالأصالة والسيادة كانت للكلمة الطيبة في دعوة الناس وتبليغهم بالدين الجديد.

(١) الانعام: ١٠٨.

الرحيل عن مكة

بعد أن بدأ عدد المسلمين في المدينة يثرب بازدياد مطرد، أحس الزعماء القرشيون بالخطر المحدق! لأنهم يعلمون جيدا أن النبي ﷺ سيتجه صوب يثرب، حيث الملاذ الآمن والأتباع الكُثر والحاضنة والمقبولية الكبيرة له ولدينه وأتباعه.. مما يعني أنه ﷺ سيكوّن معهم جيشا قويا ينهض في مواجهة جبروتهم وطغيانهم! وفوق ذلك فإن تجارتهم صوب الشام سيهددها الخطر من أتباع النبي ﷺ في يثرب التي تقع على ذلك الطريق! لذلك فكروا في معالجة الموقف قبل استفحال الوضع وخروجه عن السيطرة!

وقبل أن يهاجر النبي ﷺ الى يثرب، هاجر غالبية مسلمي مكة؛ تخلصا من الانتقام والبطش القرشي! بعد أن وجههم النبي ﷺ بذلك، فلم يبقَ بمكة منهم إلّا النفر القليل الذي لم تسمح له الظروف بتركها! وهذه سياسة نبوية رشيدة؛ لأنه ﷺ علم أن طغاة قريش قد عمدوا الى بذل كل شيء من أجل إبادتهم عن بكرة أبيهم! كما أنهم أخيرا اتفقوا على قتله ﷺ من خلال حيلة شيطانية صاحبها أبو سفيان الأموي، إذ أشار على القبائل بأن يرشحوا أحد فرسانهم الشجعان ليتشارك الجميع

بتلك الفعلة المشينة! وبذلك يضيع دمه بين القبائل، فلا يستطيع حينئذ بنو هاشم طلب الثأر بدمه! فهم لا قوة لهم قبال عشرة قبائل! حينئذ سيضطرون الى قبول الديّة! فياله من مكر! يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. فكان الله لهم بالمرصاد! ففي تلك الليلة التي تعاهد فيها أعداء الله على قتله صلى الله عليه وآله، أوحى الله سبحانه اليه بالهجرة الى يثرب، وحيث كان صلى الله عليه وآله يخشى العيون القرشية أن تتبعه إذا هم افتقدوه في فراشه، فقد عمد الى علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عمه وربيبه ورفيق دربه! أن ينام في فراشه متسجّيا برده الحضرمي الأخضر، وأن يتخلف في مكة بعده لأداء الودائع والأمانات الى أهلها.. ولما جن الليل جاء فرسان الكفر الى حيث يهجع الحبيب صلى الله عليه وآله! وجعلوا ينظرون الى مكان نومه! فاطمأنت نفوسهم بأنه لم يفر! وما أن كان الثلث الأخير من الليل حتى خرج صلى الله عليه وآله بإعجاز رباني! إذ لم تره أعينهم! أو كما قيل أنه خرج على حين غفلة منهم وهم لا يشعرون!

فدائيّ الاسلام الأول!

ليس من الانصاف ونحن نتحدث عن خروج النبي صلى الله عليه وآله من مكة أن نغض الطرف عن تلك البطولة الفدائية التي قام بها أسد النبي صلى الله عليه وآله، وأسد الاسلام الكرار الذي لم يعرف الفرار! ذلك الفتى الذي طلبه صلى الله عليه وآله ليبيت في فراشه ليلة خروجه من البيت الذي سيهاجمه فرسان قريش..

وبرغم ما كان ينتاب ذلك من خطر! إلّا أن عليا لم يبدِ أي اعتراض أو مسألة! سوى أنه قال للحبيب صلى الله عليه وآله: «**وتسلم يا رسول الله**»؟! فأجابه النبي صلى الله عليه وآله: «**نعم**». فلله دره من فتى! كان أول القوم اسلاما! ثم صار أولهم للحبيب صلى الله عليه وآله فداءً! فلم يسأل عن سلامة نفسه! وما سيلاقيه من الكفار! ولم يبدِ أي خوف أو مهابة من سيوف بتارة بأيدي فرسان عتاة ظلمة! وهو راقد في فراش أخيه صلى الله عليه وآله، مغطى بما كان صلى الله عليه وآله يتغطى به! فاحتمال النجاة ضعيف جدا جدا! رغم ذلك نام مطمئنا؛ فالمهم عنده هو نجاة أخيه صلى الله عليه وآله من الكفار، أما عن نفسه فلم يبالِ بما سيؤول إليها من حال!! فأي فضيلة هذه..؟!

الهجوم والبحث عن المطلوب!

بعد مرور ثلثي الليل تقريبا بادر الفرسان القرشيون بالهجوم على فراش النبي صلى الله عليه وآله، وقفوا حول الفراش ورفعوا السيوف وتهيؤوا للضربة الواحدة! وما إن رفعوا الغطاء ليفعلوا فعلتهم! حتى فوجئوا بعلي عليه السلام، لقد خابوا بما يطلبون! عند ذلك استنفرت قريش قواها، وسخرت كل امكاناتها؛ لتقبض على النبي صلى الله عليه وآله قبل ان يفلت منها صوب يثرب، عمد الرسول صلى الله عليه وآله الى أخذ الاتجاه الجنوبي مسلكا، فالسير نحو اليمن لم يكن متوقعا من عتاة قريش، اضافة الى ان هناك مغارة في جبل ثور يمكن الاختباء بها أياما الى أن يهدأ الموقف! وبالفعل بقي ثلاثة أيام في تلك الغار، ثم خرج وأخذ الطريق جنوباً، بعدها انعطف الى الشرق باتجاه البحر الاحمر، ولم يسلكوا سوى الطرق التي تسلك بشكل قليل جدا من المارة.

أما قريش فقد جن جنونها! لذلك جعلت جائزة كبيرة جدا لمن يأتي به صلى الله عليه وآله! جائزة سال لها لعاب المجرمين من قطاع الطرق وذوي الأنفس الدنيئة! فنفروا من ساعتهم يبحثون عن فريسة لها خالق الاكوان حامٍ! لا يعلمون ان من كان لله كان الله له! ويذكر أن احدهم قد صادف

النبي صلى الله عليه وآله ومن معه، غير انه لم يميزهم بالضبط! وبعد ان وصل مكة وسمع بتلك الجائزة، كتم ما رآه في طريقه! لكي لا ينافسه أحد على تلك الجائزة العظيمة! ارتقى صهوة جواده وأناخها مسرعا باتجاه طريق النبي صلى الله عليه وآله ومن معه! وبالفعل استطاع ان يرى من بعيد ثلاثة اشخاص! وتحدث في قرارة نفسه ان لا شك انه محمد الذي سأغتني بسببه.. فشهر سيفه وراح يجري لاهثا نحو الهدف المنشود! فما ان وصل قريبا من مبتغاه! حتى عثرت جواده وكاد ان يسقط! ولم يكف عن مبتغاه رغم ما جرى! فناخ فرسه مرة اخرى واسرعت، حتى عثرت الجواد ثانيا واسقطته! مما جعل يطلب الامان من النبي صلى الله عليه وآله! وبذلك كف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله اذى هذا الرجل، ويقال انه فيما بعد اسلم لما رآه من الكرامة الربانية لنبيه، ايقن منها ان النبي صلى الله عليه وآله ليس بالرجل العادي، فهذا التأييد والتسديد لا يكون إلا من كان له الرحمن وليا.. واستطاع النبي صلى الله عليه وآله بعدها من النجاة من قريش، واجتاز المناطق التابعة الى مكة وضواحيها، سادلا بذلك الستار عن مرحلة جديدة من مراحل انطلاق الدعوة والصراع بين الحق والباطل! مرحلة اُعيدت فيها موازين القوى لصالح النبي صلى الله عليه وآله واتباعه! فشع بعدها ضياء الاسلام ربوع العالم، مؤذنا بإظهاره على الدين كله.. ولو كره الكافرون!

وداع مكة!

بعد أن خرج النبي ﷺ من مكة، وتخلص من كفارها العامدين على قتله! قام ﷺ بمباغتتهم.. حيث خرج باتجاه الجنوب صوب اليمن! ثم انعطف شرقا نحو البحر الاحمر.. فشمالا باتجاه يثرب! حتى وصل الى أطراف مكة من الجهة الشرقية.. هنالك وقف النبي ﷺ وأخذ ينظر بحسرة اتجاه موطنه! حيث الديار وذكريات الاهل والاحبة! مدينة بأحيائها وأزقتها وزواياها.. التي جمعته بأحبة طالما بقي يحن لهم بشوق مُزج بالألم! وقف الحبيب ﷺ هنالك وهو يستعرض أمام ناظره صورا هاجت لها المواجع! شيبة الحمد عبد المطلب، آمنة بنت وهب، أبو طالب شيخ الأبطح، خديجة الصديقة!! وغيرهم ممن كان له معهم تجربة حياة نبيلة، وعشرة طيب لا تُنسى! تجارب ضمت بين جنباتها ليالي وأياماً حلوة مَرّة، ومُرّة أخرى! وتلك المرابع والرياض التي رسمت خيال الطفولة بعنفوان البراءة! نعم فالحبيب ﷺ يتألم لفراق مكة، فهو القائل: «**حب الوطن من الايمان**»! وهذا قمة الانسجام مع الفطرة السليمة! التي تأبى أن تُنكر الديار والوطن، فالنبي ﷺ مع كل ما عاناه في مكة وكل ما شاقاه، لم يتغير حُبّه لها، ولم تتبدل عواطفه

اتجاهها! حتى روي أن النبي صلى الله عليه وآله وهو على ناقته واقف بالحَزْوَرة شرق مكة قال لها مخاطبا: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أُخرجت منك لما خرجت**»[1].

وليس بعيدا بكاؤه عليها بعدا وفراقا! يبكي لتلك الذكريات وتلك الشخوص التي تمثل له امتداداً روحيا ونفسيا.. وفوق ذلك امتداداً بيولوجيا ايضا! ما هو المانع من ذلك؟ فهذا تلميذه وابن عمه علي عليه السلام يقول: «**من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحفظه قديم إخوانه**»[2]!!! وهذه صفعة أُخرى بوجه من يدعي ان اهل الدين والمتدينين ليسوا بوطنيين.. وأن الدين والوطنية لا يجتمعان بحال من الاحوال! فهذا هو قائدهم وزعيمهم صلى الله عليه وآله قد أعطانا درسا بليغا في الوطنية! بجانبَيه التنظيري والتطبيقي!

---

(١) ميزان الحكمة: ج١١، ص١٩٣.

(٢) المصدر نفسه.

المحتويات